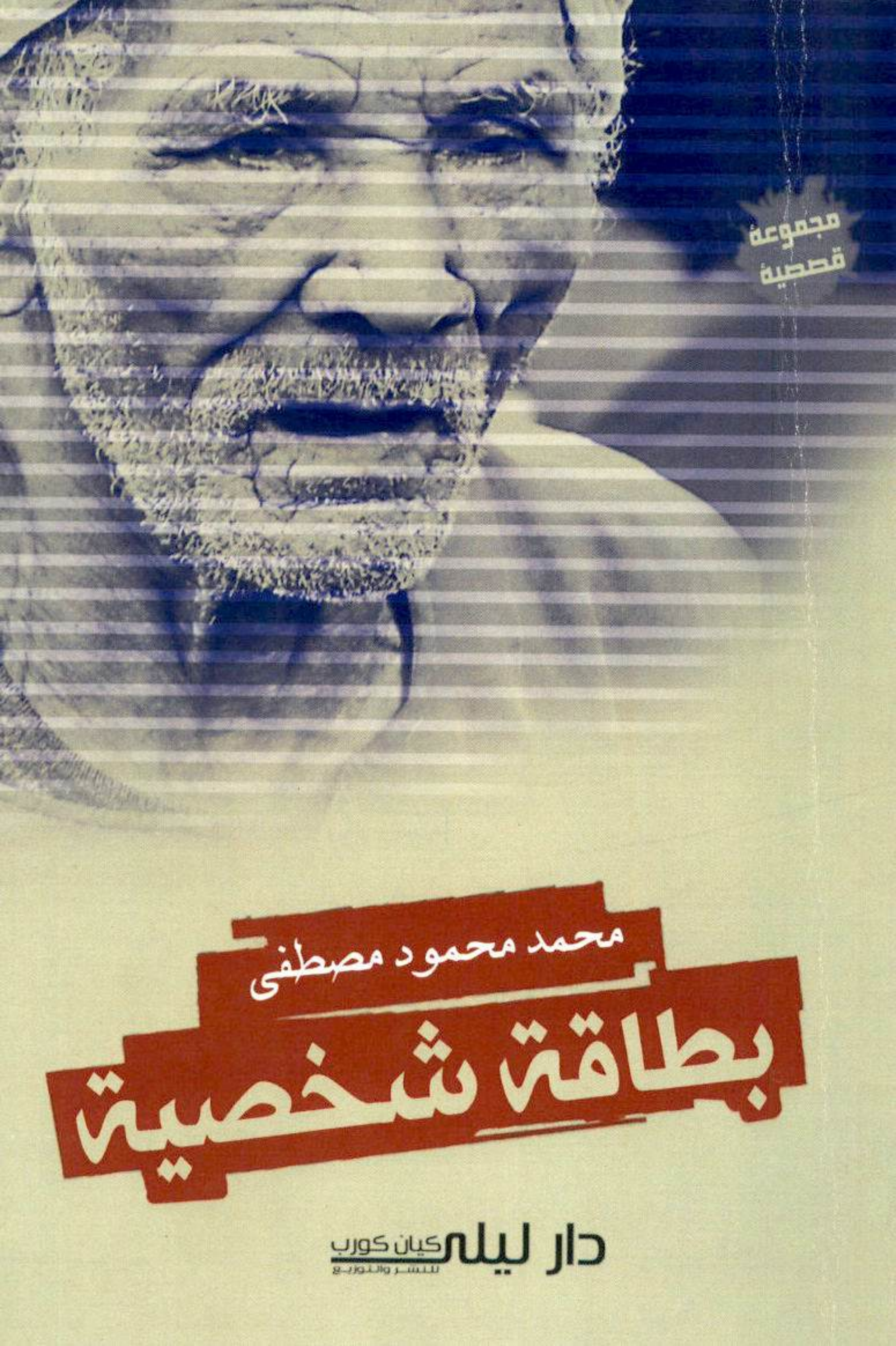

مجموعة
قصصية
محمد محمود مصطفى
بطاقة شخصية
دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

بطاقة شخصية

"وقصص أخرى"

محمد محمود مصطفى

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الكتاب:
بطاقة شخصية
المؤلف:
محمد محمود مصطفى

★★★

الإشراف العام:
محمد سامي

★★★

المهندسين-12 شارع أحمد عرابي -الدور 3 -مكتب 8
هاتف: 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com   الموقع الرسمي: www.darlila.com

محمد محمود مصطفى

بطاقة شخصية



للتواصل مع الكاتب

Mohammed.mahmoud_238@yahoo.com

إهداء

إلى أبى من قام بشراء أول كتاب قرأته بحياتي، إلى أمي من علمتني القراءة، إلى رفيقة العمر يسرا الفيشاوى من ساندتني وكانت هناك منذ البداية، إلى صديقا الصبا ريمون عادل ومحمد الصغير، إلى الأستاذ علاء الدين محمد على الذي طالما أمدني بملاحظاته الرائعة، إلى الوجوه التي لم أعرف أسمائها ولكنها تركت بصمتها بحياتي، إلى أبطال قصصي الذين صمموا على الخروج.

انكسار

جلست بجوار النافذة تتأمل قرص الشمس الأحمر وهو يختفي في هدوء خلف العمارات الشاهقة الممتدة أمامها بلا نهاية على امتداد الأفق، مبان عالية تناطح السحاب تكاد تمزقه، مبان رمادية كئيبة تثير الرجفة في نفسها المتوترة. انتهت منذ دقائق من تنظيف الشقة بعد ان ثار بداخلها بركان من الغضب الدفين لم تجد له مخرج فقررت أن تخرج ما بداخلها في معركة حانقة مع ذرات التراب وبقايا الأوساخ المتراكمة، امتدت معركتها لموقعة مع بقايا الدهون التي كللت الأطباق الفارغة التي كانت تشعر بإنها تحدجها بنظرات متشفية تسخر منها في صمت فانهالت عليها تنظيفا في غل، غررت بها ذرات التراب فسرعان ما عادت تتكوم على قطع الأثاث بعد أن تحاول طردها فتتطاير في الهواء المحيط بها وتهبط مرة أخرى وكأنها لا تبالى بمحاولاتها العبثية لطردها. تعالت موجات الغضب الدفين بداخلها وتدفقت مشاعر

اليأس والإحباط لتسيطر عليها فقررت الإنسحاب لتجلس بجوار النافذة، تبث نسمات الهواء بعضا مما تشعر.

إختفت الشمس تماما من المشهد وخبا بريقها الساطع الذى أقتحمت به اليوم في بداية النهار وإن كانت لا تزال تحاول التشبث بمكانها في الأفق مرسله نبضاً ضعيفاً من ضوء خافت يقاوم سكرات الموت المحتوم. ما هى إلا دقائق حتى بدأت جنود الليل في الإنتشار، إتحد الأسود مع لون المبان الرمادى في شوق كأنهما حبيبان وجدا بعضهما بعد فراق طويل. لم تعد ترى اللون الأبيض في السماء، حتى ضوء الغرفة الأبيض إستحال للون أخر غريب عنها، تراوحت ألوان الموجودات حولها بين الأسود والرمادى وما بينهما من درجات لا تكاد تلحظ. شعرت بثقل غريب يجثم على كتفها فأزدادت وهنا على وهن، إنقبض قلبها داخل صدرها، شعرت بالتوتر وأحست بإقتراب عودته من العمل، نظرت للشارع المكسو بطبقة غليظة من الأسفلت الأسود علها تلمحه، تناقص عدد الماره في الشارع عن الصباح بشكل ملحوظ ولكنه لم يكن بينهم.

أسفل عمود الإناره الوحيد الذى يرسل ضوئه الشاحب على السائرين لمحت ذلك الشرطى بهراوته الغليظة يروح ويجئ دون كلل يتقدمه كرشه الضخم وقد أرخى طاقيته الميرى على رأسه في محاولة بائسة لمداره الصلع الذى يعلو رأسه، يذكرها بشئ ما يتوارى في تلافيف مخها،

بشخص ما تكاد تكون تعرفه، تراه يتأمل الماره بعينان يملؤهما الشك والتحفز. لمحت زوجها يقترب في خطى بطيئة واثقة، دخل تحت دائرة الضوء الصادر من المصباح الشاحب مقتربا من الشرطى ورفع يده محييا إياه، رد عليه الشرطى تحيته بيده هو الأخر وقد لانت ملامحة وظهر شبح إبتسامة على وجهه، تعجبت في سرها فلم ترى هذا الشرطى يبتسم لأحد من قبل.

سمعت صوت المفتاح وهو يدور في قفل باب الشقة، إنفتح الباب عن زوجها، رأها فابتسم لها محييا. أغلق الباب بقدمه كعادته، قبلها على وجنتها اليمنى، توجه لغرفة النوم وخرج منها ممسكاً بمنامته في يده متجها للحمام. توجهت هى للمطبخ لتسخن له طعام العشاء، كانت تسمع صوت قطرات المياه وهى ترتطم بأرض الحمام الرخامية بينما زوجها يستحم كعادته التي بدأها مؤخراً، شعرت بالمراره، تعاظم صوت إرتطام المياه بأرض الحمام في أذنها حتى غطى على باقى الأصوات، شعرت وكأن قطرات الماء رصاصات تخترق جسدها وتدمى روحها بقسوه.

خرج زوجها من الحمام مرتديا منامته وجلس معها على طاولة الطعام، تناولا العشاء في صمت، كان يبدو الإرهاق على ملامحة جليا. كانت تعرف سبب إرهاقه فلم تحاول أن تسأل. تعرف السبب وراء

تـأخره الـذى أخـذ يـزداد يوماً بعـد يـومٍ، تعـرف الـسبب وراء صـمته وإنعزاله عنها، لم يعودا يتبادلا حديثهما المعتاد وإقتصر كلامهما علـى بضع كلمات كل صباح ومساء، لكم تبدو ذكريات مرحه المعتـاد وإكتئابـه في بعض الأحيان وهو يحدثها عن تفاصيل يومه وما مر عليه من أحـداث منذ لحظة خروجه من المنزل وحتى عودته إليها بعيـدة، كانـت تعـرف السبب وتكتمه بداخلها، تتبدى لها أشباح ذكريـات غامـضة عـن أمهـا وجلستها كل مساء تقرأ القرأن في إنتظار عـودة أبيهـا، إعتـاد أن تجلـس تحت قدميها لتستمع لما تقرأه في صـمت إلى أن يغالبهـا النـوم فيغلبهـا، لأول مره تدرك معنى تلك الآيه التي إعتادت أمهـا علـى ترديـدها " ولا تسئلوا عن أشياءٍ إن تبدَ لكم تسوئكم "، كانت تعـرف وكانـت أمهـا مـن قبلها تعرف ولكنهما أختارتا الصمت.

أستلقيا سويا علـى الـسرير إسـتعداد للنـوم، كانـت تـدرك إنهـا لـن تستطيع إستجلاب النـوم مهمـا حاولـت، لم تـنم في الـشهور الماضـية إلا بالنهار، صار الليل مرتعاً خصباً لخيـالات وأحـلام وأوهـام تتملكهـا ولا تستطيع منها فكاكاً. طالعهـا شـبح أبيهـا بنظراتـه الـصارمة الـتي طالمـا أرعبتها منه، كان الإنكماش رد الفعل الطبيعى الذى لازمها مـع الوقـت كل مره ينظر فيها أبيها اليها بواحدة من تلـك النظـرات، حتـى أخاهـا الكبير بطريقة ما ورث من والدهما تلك النظرات، و لكنه – أخاها – كان

عطوفاً في بعض الأحيان، لم يكن في قسوة أبيها، لم تعرف أحدا في مثل قسوة أبيها.

إنتظمت أنفاس زوجها في إيقاع منتظم فعرفت إنه قد استغرق في النوم، كانت تريد أن تبكى، تجمعت الدموع في عينيها ولم تغادرها، تشتم رائحة الأخرى على جسد زوجها فيزداد شعورها بالعجز، تعرف إنه كان معها اليوم، ترى شبحها معهما في غرفة النوم يبتسم لها في سخرية، تراها وهى تحتضن زوجها، تقبله وهى تنظر لها وعلى شفتيها نفس الإبتسامة الساخرة. أرادت أن تختبئ تحت السرير كما إعتادت أن تفعل عندما كان يسعى خلفها والدها ممسكاً حزامه يريد ضربها لسبب أو لأخر. تلتصق في الحائط البارد تحت السرير إلى أن تغرق في النوم دون أن تشعر.

كانت تعرف أنه يخونها مع أخرى، ترى ملامحها على وجهه، تلاحظ إلتفافة تلك الشعرة التي سقطت منها سهواً على بذلته. قامت وأرتدت ملابسها في صمت، أرادت أن تتخلص من الشعور بالثقل الجاثم على صدرها فخرجت لتتمشى علها ترتاح قليلا، كانت تعرف أن زوجها لن يتغاضى عن خروجها دون إذنه في مثل ذلك الوقت المتأخر، ولكنها لم تعد تبالى، أكسبتها المراره التي تشعر بها قوة غريبة عنها، نظر لها الشرطى وفى وجهه ملامح أبيها الصارمة، شعرت بالخوف منه يغلبها

فأسرعت في خطواتها لتهرب من محيط نظراته، تسربت منها تلك القوة التي شعرت بها وهى تكاد ترى نظراته تخترق ظهرها وتدمى روحها، سار شبح أمها بجوارها فأطمئنت قليلا، لم تغادر شبح أمها نظره الإستسلام التي صاحبتها في حياتها، تقف على باب الغرفة وتراقب إبنتها تختبئ تحت السرير دون أن تحرك ساكنا أو تبدى إعتراضا على ما يفعله زوجها، تتجمد الدموع على مقلتيها دون أن تغادرها، فكرت إنها ربما ورثت تلك العادة من أمها مثلما ورث أخيها من والدهما قسوته.

داعبتها نسمات الهواء وهى تقف على الكوبرى فلم تشعر بها، تجمعت موجات المياه تحتها لتشكل ملامح وجه زوجة أخيها والحزن في عينيها عندما سارت بجوارها في جنازة والدتها، كانت هى تبكى في حرقة وقد شعرت بالضياع والإنقباض من الأيام المقبلة، كانت تفكر وقتها في المستقبل الغامض الذى ينتظرها بعد رحيل أمها، فبالرغم من أن أمها لم تكن تملك لها نفعا ولا ضرا ضد قسوة أبيها وعنفه إلا انها كانت تهون عليها في غيابه عن المنزل، تحتضها وتريح رأسها على فخذها وهما متكومتان بجوار الحائط، تداعب شعرها وتخفف عنها بكلمات خجولة مترددة. حدثتها مره عن خطأ الطبيب الذى أخبر والدها أن زوجته حبلى في ولد صحيح الجسد متكامل الأعضاء، حدثتها عن فرحة

والدها بالولد الثاني الذي سيزيد من عزوته في الدنيا، وحدثتها عن صدمته عندما جائت هي الى الدنيا تبكي وتصرخ وتصارع الهواء بقدمين صغيرتان. وقتها إنطفأت الفرحة في وجهه وبدأت تتصلب ملامحة إلى أن أصبحت تبدو كما تراها هي اليوم. حدثتها عن والدها وكيف إعتاد أن يبتسم طيلة الوقت، وكيف كان أقرب للبشر وقتها، كانت أمها تخشى ما رسمته الإيام على ملامح والدها وروحه، وبطريقة ما إنتقلت كل مشاعر الخوف تلك إليها، كان هو الأمر الناهي الذى لا راد لكلمته، لم يسامحها لقتلها للولد الذى أراده، ولم تسامح هي نفسها على ذلك رغم إنها لم تكن تدرك أين أخطأت بالضبط و لا كيف.

تغيرت ملامح زوجة أخيها على صفحة الماء وهرمت ملامح وجه أبيها، كان يحب أخيها حقا، لا تتذكر إن كان والدها قد رفع يده على أخيها من قبل أم لا. ولكن ما تتذكره جيدا أن زوجة أخيها كانت تكرهها، قبل وفاه والدتها أسرت لها في أحد جلساتهم بجوار الحائط كيف أنها أجمل من زوجة أخيها، وأنها تخشى عليها منها ومن حقدها بعد أن تموت. لم تكن زوجة أخيها تخشى والدها كما كانت تخشاه هي، تعجبت كيف كان والدها يبتسم لزوجة أخيها، تعجبت كيف أن أبيها قادر على الإبتسام وإستغربت ملامحة المبتسمة تلك. هرم والدها وإنتقل أخيها وزوجته للعيش معهم، تحولت زوجته إلى كيان مسيطر

قوى، تحكمت في مصيرها ومصير والدها العجوز.

لمحت أحد الأشخاص قادما من أول الكوبرى، لم تتبين القادم في ظلام الليل ولكنها توترت. دخل الجسد السائر على مهل إلى دائرة الضوء الصادر من عمود الإضاءة المرتعش مصباحه، كانت إمرآه عجوز تلفحت بأسمال سوداء، وقفت تحت عمود الإضاءة ويممت وجهها شطر الماء، تابعتها بنظرها قليلا فوجدتها ثابتة في وقفتها كالأصنام لا تحرك طرفا. عادت تتأمل صفحة الماء، تذكرت كيف إعتادت التسلل لغرفة والدها المريض أثناء نومه تتأمل ملامحه، تكاثرت عليه السنون وتركت علاماتها على وجهه، كان يبدو هادئا في نومه، أحبت ملامحه تلك وشعرت بالشفقة عليه والمرض يأكله حياً ولا يرحمه، دعت الله أن يشفيه ويعيده سالما.

نظرت على يمينها فلم تجد المرأة العجوز، رقدت الأسمال السوداء على الرصيف متخليه عن صاحبتها، بحثت عنها بنظرها فلم تجدها. تقدم زوجها ليطلب يدها بعد وفاه والدها بشهور قليلة، وافقت زوجة أخيها على الفور، بل كان لها الفضل في إسراع عملية الزواج. زارت شقة والدها مرة واحدة بعد زواجها فلم تتعرف عليها، تحولت غرفتها القديمة لغرفة أطفال وتبدل لون الحوائط القديم بلون أخر جديد زاهي، وجدت زوجة أخيها تستعد لإستقبال مولدها الأول فلم تستطيع أن

تضايفها حق الضيافة، وكان أخيها مشغول في تلبيه مطالب زوجته الحبلى فلم يلتفت إليها، هامت في الشقة القديمة فلم يوقفها أحد، إحتل كرسى الصالون الجديد المذهب مكانها وأمها بجوار الحائط.

وجدت وجه المرأة العجوز التي كانت تقف بجوارها يتشكل على صفحة الماء، إستدارت عائدة لشقتها ولزوجها النائم، من بعيد دوى عواء مزق صمت الليل فأرتعبت وأسرعت الخطى. كرهت العودة التي لا مفر منها لشقتها التي أصبحت لا تحمل رائحتها كما إعتادت، أصبحت تشتم رائحة الأخرى في كل ركن من أركانها، وتلونت جدرانها بلون الشعيرات المتساقطة على ملابس زوجها. لابد وأنها أغضبت زوجها بشكل أو بأخر ليلجأ لأحضان أخرى، كانت تكرهها دون أن تعرفها أو تراها حتى، تمنت لو طاردها زوجها هو الأخر ممسكا بحزامه كما إعتاد والدها أن يفعل، لأول مره تدرك أنه هناك ألما أشد قسوة من ضربات الحزام الموجعة، عندما عرفت للمرة الأولى أن زوجها يخونها فكرت أن تلجأ لأخيها ولكنها عندما ذهبت لم تجد بيتها ولا شارعها كله، أدركت وقتها أنها وحيدة حقا، بلا أخ ولا أم ولا زوج في مواجهة العالم. وقتها عادت لشقتها التي لم تعد لها ولم تبس ببنت شفه، كانت تعرف وأدركت أن المعرفة تقتل أحيانا.

كان الشرطى يروح ويجئ كما أعتاد أن يفعل، لم يغير مرور الساعات

ولا الأيام في حركته، بدا وكأنه لا يستطيع الشعور بالتعب ولا الإرهـاق. رمقها بنظرة غليظة متشككة وهو يـدفن هراوتـه في راحـة يـده، نظـرت للأرض وسارت في هدوء إلى مدخل العمـارة، كـل خطـوه تخطوهـا وهـى تصعد السلم كانت تقرب رائحة غريمتهـا أقـرب وأقـرب، شـعرت بهـا تجثم على أنفاسها، أخرجت مفتاح الشقة من حقيبتها ووضـعته في قفـل الباب، فتحت الباب لتجـد زوجهـا واقفـا في مواجهتهـا وعينـاه تنفثـان غضب إمتزج بنار شعرت بها تحرق جلدها، للحظة خيل إليها أنه يشبه إبيها كثيراً، كيف لم تلاحظ عليه ذلك من قبل. لمحـت حزامـه في اليـد اليمنى، سمعت صوته يشق الهواء مرتفعا قبل أن يلامس جسدها، ومـع أول ضربة تلقتهـا تعـاظم الثقـل الـذى شـعرت بـه علـى قلبهـا. تهـاوى جسدها على الأرض الباردة وقد تكسرت لملايين القطع.

أوراق وأشياء أخرى

تسللت أشعة الشمس حامله معها ذرات شبه مرئيه من التراب عبر خصاص نافذة الطبق الثالث لذلك المبنى الحكومى لتسقط على سطح مكتب جلست وراءه موظفة شابة تطالع أوراق تناثرت أمامها على المكتب مكتفيه بأشعة الشمس القادمة من وراء ظهرها. كان المبنى قديماً ذو نوافذ عالية مما جعل باقى الموظفين الجالسين في نفس الغرفة يكتفوا بنور الشمس المتسرب من شباك واحد على الرغم من إتساع الغرفة وإحتوائها على سته مكاتب.

تراصت المكاتب الست على شكل دائرى بحيث كان ظهر كل مكتب منهم يواجه أحد جدران الغرفة، وعلى مكتب أخر ملاصق للحائط الواقع على يمين تلك الموظفة الشابة جلست موظفة أخرى بدينة في الخمسينات من عمرها وتراصت أمامها على المكتب أقراص الطعمية وأرغفة الخبز وطبق من الفول وحزمة من الجرير.. كانت على وشك أن

تبدأ في تناول إفطارها وهى تنظر للطعام بشهية. بجوار هذا المكتب كان باب الغرفة الخشبى القديم المتأكل وقد علقت به ثلاث أقفال حكومية ضخمة علاها الصدأ.. على يمين الباب مكتب أخر أكبر حجماً من باقى المكاتب جلس وراءه موظف أكبر سناً من باقي الموظفين يرتدى بنطالاً يبدو عليه القدم، وقميصاً إهترأت ياقته ويرتدى نظارة طبية معلقه حول رقبته بحبل أسود اللون، كان ضخم الجثه ويبدو على وجهه تلك الملامح المميزه لرئيس مصلحه حكومية يشعر بأهميته على الرغم من تفاهه مهام وظيفته وانها في الواقع لا تتعدى التوقيع على بضع أوراق كل حين وأخر، إلا إنه يشعر بأهميته المبالغ فيها على نحو ملحوظ، ربما أكتسبه من رياء ونفاق الموظفين المحيطين به.

على يمينه جلس موظف شاب أخر وراء مكتبه في ركن الغرفة ممسكاً في يده بهاتف محمول وقد تعلق به بصره وأخذ يعبث في أزراره بيديه، كان يبدوا عليه الإنفصال تماماً عن المحيطين به.. وبجواره جلس موظف أخر أصلع الرأس، نحيف، أسنانه الأماميه غير متناسقه على نحو ظاهر، كان يجلس على مقعده وراء المكتب لا يفعل شيئاً على الإطلاق مكتفياً بالتحديق في فراغ الغرفة على الرغم من وجود ثلاثة أكوام من الأوراق والملفات على مكتبه إلا أنه بدا عليه انه لا يلاحظ وجودهم.. وعلى المكتب الواقع على يمينه دفن ذلك الموظف رأسه بين

يديه اللتان إستندتا على مكتبه وقد أغلق عينيه محاولاً الحصول على قسط من النوم.

إنشغلت الفتاه في حوار هامس مع السيده البدينه التي إنهمكت في الأكل وكل حين وأخر تلتفت للفتاه برد على كلامها أو تعليق تبديه من فم انشغل بمضغ وتقطيع الطعام الموضوع أمامها.. قطعت الفتاه حديثها عندما دخل الغرفة شاب في العشرينات من عمره، حليق الذقن، مصفف الشعر بعنايه، ويحمل على وجهه إبتسامه، و في يده بضعه أوراق، سأل الحضور قائلاً:

- صباح الخير، لو سمحت أنا كنت بجهز ورق السفر وفى ورقه بتطلع من عندكم هنا، الموضوع ده مع مين من حضراتكم؟

أشار رئيس القلم إلى السيده البدينة قائلاً:

- الأستاذة كريمة هتراجعلك الأول.

توجه الشاب إلى الأستاذة كريمة مبتسماً وهو يقدم لها الورقة التي في يده قائلاً:

- صباح الخير يا أستاذة ممكن حضرتك تراجعيلى الورقة دى؟

ألقت عليه الأستاذة كريمة نظره سريعة قائلة:

- حضرتك مش شايفنى بفطر يا أستاذ، أتفضل أستريح على ما

أخلص.

وأشارت بيدها إلى أحد المقاعد الخشبية، فتوجه الشاب ليجلس عليه في صمت، نظر رئيس القلم إلى الموظف النحيف ذو الأسنان الغير منتظمه قائلاً:

- شوفت فيلم عبد الحليم اللى جابوه على التليفزيون إمبارح يا أستاذ هشام؟

قال الأستاذ هشام:

- لا والله يا أستاذ أشرف، ده جه امتى ده.

رد عليه الأستاذ أشرف قائلاً:

- حوالى الساعه سبعه كده، مش فاكر أسم الفيلم بس أول ما شفته أفتكرت الموضوع اللى كنا بنتكلم فيه إمبارح. كان نفسى تشوفه عشان تصدقنى، فترة أواخر الستينات وبدايه السبعينات دى كانت فتره كلها سفاله وقله أدب يا راجل. بص على لبسهم كده في الأفلام وأنت تصدقنى.

قال الأستاذ هشام:

- أنت بتحكم عليهم من الأفلام يا باشا! ما أنا كنت عايش وشايف بنفسى، مكنش في الكلام ده خالص. ده شغل سينما وأفلام اللى حضرتك

بتشوفه ده، بس الواقع كان مختلف عن كده خالص. كان في رجوله وجدعنه في الناس مش موجوده دلوقت.

قال الأستاذ أشرف:

- ما أنا مقلتش حاجه، بس برضو كان في سفاله وقله أدب. يعني الناس كلها كانت جدعه وشهمه مثلاً، كان فيه كده وفيه كده، بس قله الأدب كانت أكتر برضوا.

قال الأستاذ هشام:

- طب ما كل زمن فيه كده وفيه كده، ما حضرتك شايف اللي بنشوفه دلوقت في التليفزيونات والسينما، قمه المسخره والسفاله يا باشا، والواقع أسخن من الأفلام ميت مره كمان. أنت مبتشوفش عيال اليومين دول بقوا عاملين إزاى؟ تلاقى كل واحد ماشي معبطلى في واحده في الشارع ومحدش بيقولهم أنتوا رايحين فين ولا جايين منين.

قال الأستاذ أشرف:

- على رأيك، ولا المخدرات اللى بقوا يشربوها في الشارع كده عينى عينك، دا أنا إمبارح يا راجل وانا مروح شوفت شويه عيال واقفين على ناصيه الشارع بيشربوا حشيش، أبص للواد اللى ماسك السيجاره ألاقيه بيزغرلى بعينه كده لسان حاله بيقولى فيه أيه يا عم أنت بتبصلى كده ليه. العيال أصلاً مش شايفين أنهم بيعملوا حاجه غلط.

قال الأستاذ هشام:

- عارف ايه السبب يا باشا! كله من مسرحية مدرسة المشاغبين، من ساعة المسرحية دى ما اتعرضت وهى دمرت جيل كامل، كل الشباب اللى عاصروا المسرحية دى بقوا بيقلدوا كل حاجة جت فيها.

رد علية الأستاذ أشرف قائلاً:

- وحياتك والجيل اللى بعدهم كمان، كل اللى شاف المسرحية دى بقا بيقلد اللى فيها.

أنتهت الأستاذة كريمة من إفطارها ونادت للشاب الذى جلس يتابع ما يقال في صمت، أقترب منها وناولها الورقة التي يحملها، قالت الأستاذة كريمة مخاطبة الأستاذ أشرف:

- دا جيل مش متربى أصلاً يا أستاذ أشرف، من ساعة ما الحكومة منعت الضرب في المدارس والعيال بقوا قمه البجاحه، من حوالى أسبوعين الواد ابني الصغير اللى في تانيه إعدادى راجع البيت يقولى عايز يعمل محضر في مدرس ضربه في الفصل، الواد راح المدرسة متأخر والمدرس ضربه بالعصايه على أيده. ليه وليه بقا، يقولى الضرب ممنوع في المدارس، ويضربنى بتاع أيه هو أنا أجرمت يعنى. تخيل حته العيل المفعوص ده عايز يعمل محضر للمدرس بتاعه!

نظر لها الشاب الذى اختفت الإبتسامة التي كانت تزين وجهه

عندما دخل الغرفة وقد بدأ يشعر بالإستغراب والدهشة من حديثها وإن أخفى كل هذا بداخله.

رد عليها الأستاذ أشرف قائلاً:

- أمال أيه يا مدام، جيل صايع واخدها عافيه. طب ما أحنا كنا بننضرب كل يوم في المدرسة ولا حد كان بيقول الضرب ممنوع ولا حاجه، وأدينا طلعنا متربين أهو وزى الفل، عارفين الصح من الغلط. دى أسمها وزارة التربية والتعليم يا جماعة، يعنى التربية قبل التعليم، والعيال تتربى إزاى بقى إن شاء الله من غير ضرب؟

أنهت الأستاذة كريمة مراجعة أوراق الشاب ومضت له على الأوراق و أشارت للأستاذ هشام قائلة:

- روح بقى لأستاذ هشام يكتبلك الورقة اللى أنت عايزها وبعدها أختمها من الريس.

ثم التفتت إلى الأستاذ أشرف قائلة:

- كل ما يتكلموا اليومين دول تلاقيهم يقولولك الثورة الثورة، ثورة أيه دى اللى عملوها، بقالنا كام سنة عايشين في قرف وزفت، لا البلد أتعدلت ولا شفنا نتيجه، تفجيرات وبلاوى أتحدفت علينا عمرنا ما شفناها ولا عدت علينا قبل كده.

رد عليها الأستاذ أشرف قائلاً:

- ثورة أيه يا أستاذة أنتى بتصدقى الكلام ده، كل يوم تلاقى مذيع جايبلك شويه عيال ويعمل معاهم لقاء ويقولوا احنا شباب الثورة، احنا اللى عملنا وسوينا.

شعر الشاب بالغضب يعصف صدره وهو يتذكر أيام الثورة، ويتذكر أصدقائه الذين قتلوا وهم يحاولوا التحرر من قمع وجبروت النظام السابق.. تذكر عندما نزلوا جميعاً للميدان يحدوهم الأمل ويملأ الكبت والغضب صدورهم.. قاوم رغبة شديدة في الرد عليهم ومواجهتهم بضعفهم وعبوديتهم التي تأبى عليهم حتى مجرد الإعتراف بالثورة، وكيف أن جيلهم بالكامل عاش في ظل نظام فاسد ومتعفن ولم يفكر أحد منهم حتى في مجرد الإعتراض بأى صوره من الصور، كيف صنعوا بصمتهم وحشاً رهيباً يلتهم خيرات البلد دون أن يجد من يقف في وجهه. صمت ولم يعلق مفكراً أنهم لن يغيروا وجهه نظرهم مهما حاول أو قال، فقد تربوا على الأفكار التي يعتنقوها ومن شب على شيء شاب عليه، وإن شعر بالأسف على حالهم.

رفع الأستاذ هشام نظره للشاب قائلاً في صوت خفيض:

- أنت عايز تستلم الورقه دى أمتى؟

رد عليه قائلاً:

- النهارده إن شاء الله لأنى محتاجها ضرورى عشان أكمل باقى

ورقى.

نظر له نظره ذات مغزى وقال بصوت خفيض وهو يهز رأسه:

- طب خلص نفسك بقا، شوف هتخلصها بكام عشان أكتبهالك وتخلص.

فهم الشاب مراده، وشعر بالحنق أكثر من ذى قبل، شتمهم جميعاً وسبهم داخله في صمت، يالهم من مجموعة من المنافقين، يجلسون على مكاتبهم ويتحدثون عن الفساد وكيف أن الجيل الجديد فاسد ومدلل وهم مرتشون وأساتذه في الروتين والفساد. أراد أن يقاوم وأن يرفض إعطائه رشوة، ولكنه كان يريد أن ينهى أوراقه وكان يعلم أنه لو لم يدفع فلن يحصل عليها قبل أسبوع على الأقل، فالأستاذ هشام بقادر على أن يأخر صدور الورقة إلى ما شاء الله. شعر بالخوف من إعطائه نقوداً أمام الباقين فخرج من الغرفة ووقف في الممر، أخرج من جيبه النقود وأخفاها في راحه يده، دخل مره أخرى وأعطاها للأستاذ هشام في الخفاء الذى بدأ على الفور في كتابة الورقة اللعينه. إلتفت الأستاذ هشام إلى الشاب قائلاً:

– بقا حد بردو يسيب البلد دى ويسافر، دى بلدنا دى أم الدنيا.

رد عليه الشاب في إقتضاب:

– معلش بقى، النصيب.

أكملت الأستاذة كريمة حديثها مع الأستاذ أشرف قائلة:

- يا أستاذ طالما بياخدوا فلوس من البرامج دى ميطلعوش فيها ليه! يعنى هما كانوا بينزلوا الميدان ليه وبيصرفوا منين، سبوبه جاتلهم من أمريكا، بياخدوا فلوس وبيتصرف عليهم كمان، أنا لو مكانهم كنت هنزل طبعاً.

لم تظهر إبتسامه الشاب الداخلية على وجهه، ساخراً في أعماقه منهم، نظر حوله فرأى الموظف النائم على مكتبه ولا يدرى أى شيء مما يدور حوله، والموظف الشاب الأخر الذى عزل نفسه عن العالم حاصراً كل اهتمامه في هاتفه المحمول الذى شغله تماماً، نظر لأستاذ هشام الذى كان يكتب له الورقة التي يريدها بعد أن دخلت النقود جيبه وأطمأن بها قلبه. لمح الموظفة الشابه التي كانت تعمل على مكتبها في صمت دون أن تشارك في الحديث الدائر بينهم، موظفة واحده فقط من أصل ست موظفين إحتلوا الحجرة بمكاتبهم.. هى الوحيدة التي تعمل بينما تفرغ كلاً من الباقون إلى ما يشغله.. تذكر قتلى الثورة ومصابيها وشعر بالأسف عليهم، شعر بالأسف لكل من ضحى بنفسه يوماً محاولاً تأمين مستقبل أفضل لهؤلاء.. تذكر يوم أن كان في الميدان يتحدث مع أحد المتظاهرين الذى أنطلق يحدثه في حماسة عن حقوق الموظفين وعن المعاشات الضئيلة التي يتحصلون عليها بعد إنتهاء خدمتهم، وكيف أن ما يتعرضون له ليس فيه من الحق ولا العدل من شيء.. عض على شفته

السفلى في غضب دون أن ينطق.

قال الأستاذ أشرف:

- ربنا يهديهم يا أستاذه كريمة، دول شباب مش عارفين مصلحتهم فين، يا رب يكونوا اتعظوا من اللى حصل عشان يتهدوا بقا ويشوفولهم شغلانه بدل الدوشة والهيصه اللى عاملينها دى.

أنهى الأستاذ هشام ورقة الشاب وناوله إياها مبتسماً وهو يقول:

- أى خدمه يا عم، روح بقا أختمها من استاذ أشرف وتبقى أنت كده براءة.

أخذ الشاب الورقة في صمت واتجه بها للأستاذ أشرف الذى أخذها منه وقرأ ما بها سريعاً، ثم فتح درج مكتبه العلوى وأخرج خاتم النسر وختم له الورقة ثم ناوله إياها.. قرأ الشاب الورقة وتأكد من وضوح ختم النسر عليها، رأى الختم واضحاً للنسر الفارد جناحيه في عظمة وشموخ.. إبتسم مره أخرى في سخريه وألقى على الغرفة نظره أخيرة، وخرج من الباب في هدوء دون أن يلقى عليهم السلام.

منديل وحجر وثورة

(1)

أكتوبر 2007

تخللت نسمات الهواء المنعشة الأشجار المحيطة بمقهى (الفردوس) الذى أزدحم بالزبائن في هذه الليله الهادئة من ليالى شهر أكتوبر. جلس الزبائن على الطاولات العديدة المنتشره خارج المقهى في الهواء الطلق والتى أحيطت بأصص الزروع والأشجار التي شكلت ستاراً كاملاً حول الجالسين لا يقطعة سوى مدخل القهوة.

دلف الأستاذ (شاكر) عبر مدخل المقهى ونظر حوله قبل أن يتجه في ثقة إلى إحدى الطاولات في ركن المقهى. كان قصير القامه بشكل ملفت للنظر، يتدلى كرشة الضخم من تحت قميصه الأبيض الذى وضع على ياقته منديلاً قماشياً من نفس اللون ليحافظ عليها من أثار العرق، في عينه اليمنى حولاً لا تدركه العين لأول مره ولكن تلاحظه بعد فتره.

كان ينتظره على الطاولة ثلاثة من أصدقائه الذين ما أن رأوه حتى أبتسموا وقاموا من على مقاعدهم ليصافحوه.للأستاذ (شاكر) معزة خاصة في قلوب أصدقائه، ليس فقط لخفة دمه وروحه المرحه، فقد كان رجلاً طيب القلب بمعنى الكلمة، لا يحمل ضغينة أو عداوه لأى مخلوق، لا يكاد يعلم بمرض أحدهم حتى يعوده ليطمئن على صحته، ولم يكن يترك مناسبة هامة لأحدهم دون أن يقوم بعمل الواجب سواء كانت مناسبة حزينة أو سعيدة.

جلس الأستاذ (شاكر) على مقعده بعد أن تبادل السلام والتحية المعتادة مع أصدقائه، كان الأستاذ لا يجالس أصدقائه على المقهى إلا يوم الخميس من كل أسبوع أما باقى أيام الأسبوع فكان يذهب في الصباح إلى المدرسة التي يعمل بها مدرساً للغه العربية مصطحباً معه ولداه اللذان ألحقهما معه بنفس المدرسة. وبعد أن تنتهى مواعيد المدرسة يصطحب معه ولداه عائداً إلى المنزل فينام ساعتان حتى توقظه زوجتة فيتناول طعام الغداء ثم يغادر منزله إلى دروسه الخصوصيه التي تنتهى عادةً حوالى التاسعة مساءاً، فيعود للمنزل مره أخرى ليقضى الباقى من يومه مع زوجته وأبناؤه. كان رجل عائلة بمعنى الكلمة يحب زوجته وأبناؤه ولا يبخل عليهم بوقته إطلاقاً، ولهذا السبب قصر ذهابه للمقهى لمقابلة أصدقائه على يوم الخميس فقط.

جاء (عادل) نادل المقهى وألقى بالتحية على الأستاذ (شاكر) الذى قال له:

- القهوة المظبوط بتاعتى يا عادل، وهات معاك الدومينو (نطقها بالأنجليزية).

ثم ألتفت ضاحكاً إلى الأستاذ (ياسر) الجالس على يمينه قائلاً:

-مش نطقتها صح كده يا مستر ياسر؟

ضحك الأستاذ (ياسر) مدرس اللغة الأنجليزية في نفس المدرسة التي يعمل بها الأستاذ (شاكر) قائلاً:

- ما شاء الله عليك، دا أنت تيجى تدَرِس إنجليزى بقا وتبقى مستر زيى.

- لا يا عم كفايه عليا العربى، البلد مش ناقصة خواجات.

ضجوا بالضحك على السبه المتوارية، وجاء (عادل) بالقهوة والدومينو وتحلق الأصدقاء حول الطاوله وقبل أن يبدأ اللعب قال الأستاذ (ياسر):

- أيه رأيكوا نلعب النهارده على المشاريب، ولا خايفين؟

رد علية الأستاذ (شاكر) قائلاً:

- أنت كل مره بتقول نفس الكلمتين دول، وكل مره بتخسر وتصعب

علينا ومندفعكش حاجه.

- المره دى هدفع بس أنت خسرنى الأول.

بدأ الأصدقاء في اللعب كعادتهم كل خميس. ومن مدخل القهوة دخلت طفلة صغيره شقراء الشعر، زرقاء العينين، تحمل كيساً أسود اللون إمتلأ بأكياس المناديل، أخذت تقف عند كل طاوله لتسأل الجالسين شراء المناديل منها. إلى أن وقفت أمام الطاوله التي يجلس عليها الأستاذ (شاكر) وأصدقائه. توقف الأستاذ (شاكر) عن اللعب وتأملها بوجه جامد للحظات ثم علت شفتيه إبتسامة صافية وقال لها:

- بكام كيس المناديل؟

- بجنيه.

- طب أنا هعمل معاكى أتفاق، كل سؤال تجاوبينى عليه هشترى قصاده كيس مناديل موافقة؟

هزت الفتاه رأسها في تردد معربه عن موافقتها على طلبه الغريب، فسألها الأستاذ (شاكر) قائلاً:

- أسمك إيه؟

قالت الفتاه في صوت منخفض وهى تنظر للطاولة:

- نوسه.

- عندك كام سنه يا نوسه؟

- تسع سنين.

نظر الأستاذ (شاكر) إلى أصدقائة مبتسماً وقال لهم:

- يلا يا جماعة، كل واحد فيكم هيشترى كيس من (نوسه)، وأنا هشترى أثنين حسب الأتفاق.

أبتسموا جميعاً وأخرج كل منهم جنيهاً وأعطاه لنوسه التي ناولتهم بدورها أكياس المناديل في المقابل وأخرج الأستاذ (شاكر) جنيهان وناولها إياهم، أبتسمت الفتاة في سعادة وبدأت تسير في إتجاه مخرج المقهى، تأملها الأستاذ شاكر قليلاً وقد عاد الجمود لملامح وجهه، طرأت له فكرة فنادى على الفتاة وألتفت لأصدقائه قائلاً:

- عندى فكرة حلوة، أيه رأيكم بدل ما نلعب على المشاريب الخسران يدي (نوسه) عشرين جنيه، وأهو تبقى حاجه لوجه الله؟

ثم ألتفت إلى الأستاذ (ياسر) مبتسماً وهو يقول:

- ولا أنت خايف يا مستر؟

أومأ الأستاذ (ياسر) رأسه بقوه أن لا وهو يقول:

- وأنا معنديش مانع.

قال الأستاذ (شاكر) للفتاة وهو يسحب مقعداً:

- أيـه رأيـك يـا (نوسـه)، هتقعـدى معانـا شـويه وأحنـا هنلعـب والخسران فينا هيديكى عشرين جنيه ومش هياخـد منـك مناديـل أيـه رأيك؟

ظهر التردد على وجه الفتاة، فأكمل الأستاذ (شاكر) قائلاً:

- وأنا عازمك على إزازه حاجه ساقعة من عندى كمان.

هزت الفتاه رأسها بعلامة الموافقة وجلست على المقعد المجاور لـه. نادى الأستاذ (شاكر) على نـادل المقهـى الـذى مـا أن أتـى ورأى الفتـاة تجلس على الكرسى حتى كشر عن انيابه وتحرك تجاهها ليصيح بهـا أن تغادر المقهى، لولا أن أبتدره الأستاذ (شاكر) قائلاً في حزم:

- هات حاجة ساقعه لنوسة على حسابى.

ظهر الـضيق علـى وجـه النـادل الـذى ذهـب لتلبيـه طلـب الأسـتاذ (شاكر) مضطراً وهو يلعن في سره اليوم الذى أصبح يعمل فيه عند أبنـاء الشوارع. إنهمك الأصـدقاء في اللعـب بينمـا جلـست (نوسـة) بجـانبهم تراقبهم وهم يلعبون دون أن تفهم شيئاً. جائت الصودا فبـدأ تـشربها في تلذذ وهى تتجشأ من حين لأخر، تمنـت مـن أعمـاق قلبهـا الـصغير أن ينتصر الأستاذ (شاكر)، وشعرت بالسعادة وهى ترى إبتسامة الأنتصار على وجهه وهو يقول للأستاذ (ياسر):

- أديك خسرت يا حلو، أدفع لنوسة العشرين جنيه. الإتفاق إتفاق.

ظهر الحنق على وجه الأستاذ (ياسر) وهو يخرج العشرون جنيه من جيبه ويناولهم لنوسة وقال للأستاذ (شاكر):

- على فكره أنت بتكسب حظ، على طول حظك عالى.

أبتسم الأستاذ (شاكر) وهو يقول:

- يعنى هو ده جديد عليك، ما أنت على طول بتخسر.

قبضت الفتاة على النقود في يدها وقبل أن تذهب إستدارت إلى الأستاذ (شاكر) وقالت في صوت منخفض وقد علت شفتيها أبتسامة واسعة:

- شكراً يا عمو.

وأستدارت مغادرة المقهى في سرعة. علا التأثر وجه الأستاذ (شاكر) وهو يقول لأصدقائة في حزن:

- مش حرام طفلة زى القمر كده وفى السن ده وتلف في الشوارع زى القطط؟

قال له أحدهم:

- دى أرزاق بيقسمها ربنا، هو عالم بحالها وأكيد بيرزقها برزقها.

ظل وجه الأستاذ (شاكر) يحمل تعبير الحزن للحظات أستدار بعدها مبتسماً إلى أصدقائه وهو يقول:

- هاه، مين فيكوا عايز يخسر تانى؟

* * * * *

(2)

أغسطس 2009

انتصف النهار وتوسطت شمس أغسطس كبد السماء، أغلق معظم قائدي السيارات نوافذ سياراتهم وفتحوا التكييفات الداخلية لينعموا بنسمات الهواء البارد. بينما احتمى المارة بظلال الأشجار والمباني من أشعة الشمس. وقف شرطي المرور بزيه الأبيض وبشرته التي لوحتها الشمس في مفترق الطريق يتابع أضواء إشارة المرور بنظره، وكلما تغيرت أضوائها كان يفرد ذراعيه ملوحاً لقائدي السيارات فيسمح بمرور هؤلاء ويشير للآخرين بالتوقف لحين، ومن ثم يسمح لهم هم أيضاً بالمرور وهكذا دواليك. بينما وقف (أحمد) الذي يبلغ من العمر عشر سنوات على الرصيف الذي يقسم الشارع الكبير إلي نصفين وقد سالت قطرات العرق على جبينه من حرارة الجو اللافحه وهو يحمل علب المناديل على يديه الصغيرتين، ينتظر وقوف السيارات في الإشارة ليهرع تجاه قائديها عارضاً عليهم شراء علبة مناديل منه.

كان يتنقل بين السيارات في سرعة وخفه أكتسبهم مع مرور الوقت، فقد أمضى عامين من عمره في بيع المناديل في هذه الإشارة بعينها. لم تكن

إشارة المرور هذه مكان عمله فقط، بل هي كل عالمه الصغير الذي يعرفه. كان (مسعد) عسكري المرور يرسله كل يوم عندما يحين موعد غدائه ليشترى له علبه كشري من المحل القريب، وكان (أحمد) يشترى له هو الأخر علبه ليأكلوا سوياً.

كان (مسعد) في الواقع هو صديق (أحمد) الوحيد، فقد كان يومه - أحمد - يبدأ وينتهي في هذه الإشارة. فما أن يستيقظ من نومه في الصباح حتى يذهب لشراء شطيرتين من الفول يتناولهم وهو جالس على الرصيف في منتصف الطريق تحت الإشارة، ثم يبدأ في الاستعداد لعمله الذي لا يغادره إلا إذا شعر بالنعاس فيذهب لينام في مكانه المعهود تحت الكوبري القريب من الإشارة ليبدأ في غده يوماً أخراً لا يكاد يختلف عن أمسه كثيراً.

وقف (أحمد) على الرصيف هذا اليوم كعادته ينتظر وقوف السيارات ليحاول بيع علبة مناديل أو اثنتان. رفع بيده طرف الفانله المهترئة التي يرتديها ليجفف قطرات العرق التي سالت على جبهته. كان الجو شديد الحرارة يبعث على الكسل والاسترخاء، ولكنه لم يكن قد باع علبه مناديل واحده منذ الصباح وقد بدأ يشعر بالتوتر لاقتراب موعد غداء (مسعد) المعتاد والذي كان يشاركه فيه الطعام، ولكن (أحمد) لم يكن معه ثمن علبه الكشري المعتادة. لم يكن ليطلب نقوداً من

(مسعد)، فقد كان يحب أن يراه كصديق له، وعلى هذا الأساس كان يحب أن يرى نفسه مساوياً له، رجلاً يستطيع الإنفاق على نفسه، وليس مجرد متسولاً أو شحاذاً.

تحول ضوء إشارة المرور إلى اللون الأحمر، فأشار (مسعد) بيده لقائدي السيارات بالتوقف. كان (أحمد) يعلم أن أمامه دقيقة واحده فقط قبل أن تفتح الإشارة مره أخرى، وهكذا إنطلق في خفه يتقافز بين السيارات مستهدفاً النافذة المجاوره لقائدي السيارات، تنقل بين بضع سيارات عارضاً بضاعته. أوشكت إشارة المرور على التحول للضوء الأخضر، إتجه (أحمد) إلى إحدى السيارات الواقفة، كان قائد السيارة رجلاً في منتصف العقد الرابع من العمر، يرتدى بذلة كاملة. يجلس بجواره طفل في حوالي الحادية عشر من العمر وقد أنهمك في تناول شطيره أحاط بها غلاف يحمل شعار أحد محال الوجبات السريعة الشهير. رفع (أحمد) علبة مناديل بجوار نافذة الرجل سائلاً إياه إن كان يرغب في شرائها! أشار الرجل بيده أن لا. تملك أحمد إحساس باليأس وهو يتطلع إلى إشارة المرور التي شارفت أضوائها على التحول للون الأخضر. أمسك بعلبة المناديل ووضعها داخل السيارة أمام الرجل وهو يلح عليه في شرائها، أمسك الرجل علبة المناديل وهو يحاول إعادتها لأحمد الذي رفض أن يستردها منه وظل يلح عليه في شرائها وقد

تحولت نبرات صوته إلى ما يشبه الرجاء اليائس.

رفع الطفل الجالس بجوار الرجل نظره ليتابع الموقف وقد ارتسمت على وجهه آيات الدهشة. أخذ الرجل يحاول إعادة علبة المناديل لأحمد مره أخرى بلا جدوى، وبعد عده محاولات فاشلة ألقى الرجل علبة المناديل على الأرض لتسقط بجوار قدمي أحمد الصغيرتين، وضغط على أحد الأزرار بالسيارة لترتفع نوافذها وتنغلق في وجه (أحمد) الذي ظل يتابع الرجل بنظره وهو يضغط على زراً أخر ليفتح التكييف الداخلي للسيارة وقد إعتراه إحساس بالظلم والإهانة. إنحنى على الأرض ملتقطاً علبة المناديل، وما أن أعتدل في وقفته حتى شعر بالغضب والثورة يعصفان بروحه عصفاً. إستدار مبتعداً بضع خطوات عن السيارة وأنحني ليلتقط حجراً من على الأرض. تحولت الإشارة إلى الضوء الأخضر وأستعد قائدي السيارات للتحرك. وبكل ما استطاعت يده الصغيرة أن تمده من قوة. ألقى بالحجر الذي يحمله على زجاج السيارة الخلفي، وأطلق ساقيه للريح.



(3)

سبتمبر 2019

تغيرت مصر كثيراً في السنوات القليلة الماضية، ومع التغيرات

السياسية التي بدأت بثورة يناير **2011** بدأت تغيرات اجتماعية لم يتوقعها أحد، فمع تصاعد الأحداث وقتها بدأت الجماعات السياسية في بعض الأوقات في إستخدام البلطجية وأبناء الشوارع المهمشين لتحقيق أهداف خاصة. تعلم البلطجية درساً هاماً وقتها لم يخطر ببالهم من قبل، أدركوا فجأة أن تجمعهم قوة ضاربة لا يستهان بها. لم تشهد مصر جريمة منظمة من قبل بإستثناء حوادث متفرقة، ومع نهاية العام **2016** بدأت قوة المجتمع المطحون في الظهور شيئاً فشيئاً، بدأ الأمر بحوادث فردية متفرقة من سرقة المارة تحت تهديد السلاح، وتصدت قوات الشرطة لهذه الحوادث. إلى أن جاء يوم الرابع والعشرون من مايو لعام **2017**.

بدأ اليوم بداية عادية للغاية، ومع دقات الساعة الثامنة مساءاً بدأت أصوات التفجيرات تدوى في سماء القاهرة والجيزة والأسكندرية في البداية، ثم تبعهتها تفجيرات في باقى أنحاء الجمهورية، وضع مجهولون عبوات ناسفة بدائية بجوار حوائط مراكز الشرطة، وبدأت سلسله من حوادث نهب وسرقة المحال والسيارات والماره حتى وصل الأمر في بعض المناطق لسرقة البيوت والمنازل والفيلات، حاولت قوات الشرطة السيطرة على الوضع وهنا بدأت الحرب، معارك دامية أستمرت حتى فجر يوم الخامس والعشرون بين قوات الشرطة والبلطجية الذين

أعدوا عدتهم لهذا الموقف، حمل البلطجية وأبناء الشوارع السلاح النارى وأنطلقوا يعيثوا في الأرض فساداً.

لن تنسى مصر هذه الليله قط، حاولت الدولة السيطرة على الوضع ودفعت بقوات من الجيش للشوارع وتم فرض حظر التجول التام، قضى المصريون إسبوعاً أسوداً وهم محبوسون في منازلهم يتابعون الأحداث على شاشات التلفاز والقنوات الفضائية، أستطاع الجيش السيطره على الوضع جزئياً ولكن مع تصاعد الأحداث في سيناء التي حاول أهلها السيطرة عليها لتصبح دويلة صغيرة عادت قوات الجيش لسيناء لمحاولة السيطرة على الوضع المتفاقم هناك.

بدأ المواطنون شيئاً فشيئاً في العوده لحياتهم الطبيعية، ولكن لم تعد المياه لمجاريها بعد ما حدث، كان أبناء الشوارع أدرى بدروبها من الشرطة والجيش فلم تستطيع الدولة السيطره عليهم تماماً، وبدأت تظهر في شوارع مصر ظاهرة جديدة لم يعتدها المصريون من قبل، بشكل ما كان هناك إتفاق خفى بين الشرطة والبلطجية، بدأ البلطجية في إستيقاف الماره تحت تهديد السلاح والإستيلاء على أموالهم ومتعلقاتهم الشخصية بالقوة تحت بصر وسمع رجال الشرطة. كان رجال الشرطة يديرون ظهورهم لهذه الحوادث، وبدأت إتفاقات سرية تحدث بينهم وبين البلطجية الذين أنتظموا في جماعات وعصابات سيطرت كل عصابة

على منطقة بعينها، وأصبح رجل الشرطة يتقاضى راتبين شهرياً، أحدهم من الدولة والأخر من عصابات الشوارع.

بدأت تظهر المنشورات والملصقات في شوارع مصر تحذر المواطنين من السير بمفردهم وتدعوهم للسير في جماعات، وأن يتجنبوا بقدر الأمكان التجول ليلاً في الطرقات وأصبح من النادر أن ترى سائراً أو راكباً في شوارع مصر ليلاً.

بدأت شمس ذلك اليوم من شهر سبتمبر عام **2019** في الغروب على منطقة المنيل بالجيزة، جلس شابين على مقدمة سيارة محطمة يتبادلان الحديث، كان واضح من هيئتهم ومن الأسلحة البيضاء في أيديهم أنهم من عصابات الشوارع، ومن بعيد أقترب رجلاً عجوزاً يحاول الإسراع في مشيته ليصل إلى منزله قبل أن تظلم السماء تماماً. تبادل الشابان بضع كلمات تحرك على إثرها أحدهم في إتجاه الرجل الذى ظهر الخوف على ملامحه لما رأى الشاب القادم نحوه وأضطرب في سيره، إقترب منه الشاب وقد علت وجهه إبتسامه قاسية وهو يقول:

- مستعجل ليه يا جدو؟ لسه بدرى، تعالى نتعرف على بعض الأول.

توقف الرجل عن السير وقد أدرك أنه تحت رحمة هذا الشاب تماماً فوقف مستسلماً في هدوء، ينتظر مصيره الذى لا يعلمه إلا الله، مال

الشاب على الرجل العجوز وهو يعبث بمدية في يده قائلاً:

- محسوبك (أحمد)، وبصراحة كده مزنوق في قرشين وأنت هتفكلى زنقتى عشان شكلك راجل طيب. معاك كام يا جدو؟

لم ينبس الرجل ببنت شفه وأستمر على نفس وقفته فبدأ الشاب يلوح بمديته أمام وجه الرجل وهو يقول:

- أيه يا جدو مش عايز تساعدنى في زنقتى ليه؟ لو ساعدتنى أوعدك أسيبك تروح بيتك سليم، شفت أنا كمان طيب إزاى.

تطلع الرجل بنظره إلى ما وراء الشاب وقد بدأ يراوده الأمل، كانت هناك فتاة تسير في إتجاههم، ولما أقتربت الفتاه أستطاع تبين ملامحها كانت في حوالى العشرين من عمرها، ممتلئة الجسد قليلاً، شقراء الشعر، زرقاء العينين، وقد ظهر من ملابسها الضيقة ومشيتها المتأنية أنها عاهره، فقد الرجل الأمل الذى راوده منذ قليل. إقتربت منهم الفتاه حتى وقفت بجانبهم، نظرت إلى الرجل العجوز طويلاً قبل أن تنظر إلى الشاب الذى ظهر على ملامحه إنه يعرفها من قبل وهى تقول:

- ما أنت شغال وبتجيب فلوس أهو، مش تجيب الفلوس اللى عليك بقا؟

ضحك الشاب وهو يقول:

- القمر طلع بدرى النهارده يعنى؟ حسابك القديم هيوصلك النهارده

وهنبدأ حساب جديد مع بعض الليله.

وأقترب منها محيطاً كتفيها بيديه فلم تحرك ساكناً أو تعترض ووقفت تنظر إلى الرجل العجوز الذى ظل يتابع ما يحدث بعينية وهو صامت، وأستدارت الفتاة إلى الشاب قائلة:

-إسمع، هعمل معاك إتفاق، سيب الراجل ده يمشي وأنا هنسى الحساب القديم إيه رأيك؟

ضحك الشاب وهو يقول:

- ده عجوز ومكحكح، تلاقيه سلم نمر من زمان مش هينفعك بحاجه دلوقت.

قالت الفتاة وهى تبتسم:

- ملكش دعوه أنت دا معرفة قديمة، أنا هلغى الحساب القديم وهعتبر أنه وصل، وعشان أنت حبيبى أنا هجيلك النهارده بليل وعلى حسابى، قلت إيه؟

تطلع إليها للحظات وهو يزن الأمر ثم قال:

- موافق يا جميل.

ونزل بيده إلى ردفيها وهو ينظر إليها قائلاً:

- هستناكى النهارده بس أوعى تتأخرى.

تحركت لتبعد يده عنها قائلة:

- متخافش هوصل جدو للبيت وأرجعلك على طول.

ووقفت أمام الرجل العجوز وقالت وهى تبتسم:

- يلا يا جدو عشان أوصلك.

تردد الرجل العجوز قليلاً قبل أن يحسم أمره، لم يكن لديه ترف الأختيار على أى حال فبدأ يسير بجوار منقذتة الغامضة. تابعهما (أحمد) بنظره وهو يتعجب في سره متسائلاً عما يعجب (نوسة) في هذا الرجل العجوز؟ أنه قصيراً للغاية بشكل واضح ويتدلى كرشة العظيم أمامه من تحت القميص، كما أنه لاحظ حولاً خفيفاً في عينه اليمنى. حرك كتفية في لا مبالاه وأستدار عائداً إلى السيارة المحطمة ليجلس بجوار صديقه.

حنين

أخذت أسير في غرفتي كـالمحموم.. أدور في دوائـر لا نـهائيـة حـول أثاثها كحاج مثقل بالذنوب، لا يدرى لم يحج ولا كيف.. رفعـت نظـرى أتأمل الموجودات من حـولى، لأول مـره تبـدو غرفتــى كئيبــة، موحـشه. أشعر بها تشدو بمرثيه حزينة بحروف من صمت وكلمات مـن سـكون.. جلست مرهقاً علـى حافـه سـريرى، رفعـت نظـرى أتأمـل ذلـك الـشرخ الصغير على الحائط المقابل، اللون البنى على حافته الذى تكون مع مرور الوقت.. تكومت ملابسى بإهمال بجوار الحائط. تأملـت وجهـى بـالمرأه فوجدتنى أصبحت للأموات أقرب، أحاطت عينى هـالات سـوداء كثيفـه وغارتا في محجريهما، ذبلت بشرتى وشحبت، إستطال شـعرى وتنـاثر بإهمال، إستطالت شعيرات ذقنى حتى أصبحت أبـدو كأحـد المجاذيـب الهـائمين على وجوههم في الشوارع.

شهران ونصف مضوا ولازلت أتذكر تفاصيلها وكأنهـا حُفـرت علـى

روحـى حتـى أصـبحت جـزءاً لا يتجـزأ منهـا.. لكـم شـعرت بـالألم في البداية! حاولت أن اقنع نفسى أن الألم سيخفت ويذبل مع مرور الوقت، وإنها ستصبح جزءاً من ذكرياتى يوماً ما.. إنعزلت على نفسى وصنعت عالمى الخاص، أحرقت أطناناً من السجائر وغرقت في بحور من الخمـر.. تناسيت نفسى حتى نستنى. هجرتنى نفسى القديمة وسكنتنى أخرى لا أعرفها ولا تعرفنى.. حاولت ان أتذكر كيف كانـت حيـاتى الماضيه فلـم أستطيع.. هى فقط من علقـت بـذاكرتى.. لكـم أحبهـا وأكرههـا في نفـس الوقت. لم أعرف من قبل أن ضدين كالحب والكره يمكن أن يمتزجـا معـاً بهذا الشكل.

مددت يدى لأسحب أخر سيجارة من علبة سجائرى.. نفثت دخانها ليمتـزج بهـواء الغرفـه المغلقـه ويعلـق في سمائهـا تحـت ضـوء المصباح الأصفر، شَكَلَ الدخان سحابه باهتـه تـأبى أن تتلاشـى وتفنـى ممتزجـه بالعدم.. مددت يدى وتحسست تلك الندبه على صدرى في شرود، عـادت ذكراها تقتحمنى بكل قوتهـا.. لم أكـن أتخيـل أن تلـك الندبـه يمكـن أن تكون سبباً لأن أتذكرها هكذا! مر على تلك الندبه شـهراً كـاملاً، أتـذكر تلك الليله وكأنها حدثت البارحه.. تلك الليله الـتي لعـب فيهـا الخمـر بعقلى واستولت علىّ فيها مشاعر متضاربه كادت تودى بعقلـى، يومهـا اشتد علىّ ألم فراقها فطافت برأسى تلك الفكره التي لا تخطر إلا عن عقل

أثقله الخمر فلم يعد يميز بين الصواب والخطأ.. يومها وقفت أمـام المـرأه وفى يدى شفره حلاقة، وفى عيناى تـصميم وعـزم، وبيـد ثابتـه غـارت شفره الحلاقة في صدرى مخلفه جرحـاً صـغيراً.. لم أشـعر بـألم وقتهـا، ومن الجرح الصغير سالت الدماء لترسم خطاً رفيعاً أحمر اللون، راقبتها في صمت ولم أحاول حتى أن أمسحها مـن علـى جـسدى.. كانـت الفكـره التي سيطرت على وقتها أن أمحى ألمى المعنوى بأخر جسدى، فإن عـادت ذكراها تطوف بعقلى أتذكر الألم الجسدى فتهدأ روحى.

لم أتبين مدى سذاجة تلك الفكره إلا في صباح اليوم التالى، إسـتيقظت يومها متثاقل الهمة مثبط العزيمة كالمعتاد، اقاوم تأثير مـا بعـد الإفاقـه من تأثير الكحول.. ومن وسط صراعى مع الطبول التي أبـت إلا أن تـدوى في رأسى شعرت بالألم ينبعث من صدرى، نظرت في المرآه فرأيـت الـدماء وقد تجمدت حول الجرح الصغير، عـادت إلـي ذكريـات الليلـه الـسابقه لحظتها.. طافت صورتها بخيالى كحلـم عـابر للحظـه.. شـعرت باليـأس عندما صدمتنى الحقيقة بقسوتها المعتاده، لم يتساوى الألم الجسدى على الإطلاق مع ذلك الثقل الذى يجثم على روحى.

كم مر على من سنون! يا الله، ثمان سنوات! لكم يبدو الماضـى تافهـاً وبعيداً وكأنما مر في لحظه عابره.. تأملت تلك الـشعيرات البيـضاء الـتي بدأت في التناثر في شعرى.. إنعكست صوره الشرخ على الحائط في المـرآه،

خيل إلى للحظه إنه إتسع عن حجمه المألوف.. ثمان سنوات لم يدق قلبى إلا بأسمها، ولم تعرف روحى سواها.

حاولت أن أتذكر السبب الذى إفترقنا من أجله! لا أدرى لماذا تراوغنى ذاكرتى اللعينه وتأبى التذكر! أشرب كأساً ثانياً وثالثاً.. أحاول القضاء على حصون عقلى علنى أتذكر.. أغيب أكثر وأكثر في ظلمات السُكر فأنسى ما كنت أبحث عنه.

أعاود السير حول أثاث الغرفه، لا ابالى بالتخبط ولا أشعر بالألم.. أضحك، أبكى، تتجهم ملامح وجهى وأبتسم في نفس اللحظه.. يتسع الشرخ على الحائط أمام عينى أكثر مما كان.. يتراقص ضوء المصباح أمام عينى قبل أن يعاود الإضاءه ويزداد نوره عما قبل حتى ليكاد يجبرنى على إغلاق عينى.. أشيح بنظرى فيقع على صورتنا المعلقه على الحائط. كم كنا سعداء وقتها! إبتسامتها تنير ركن الغرفه حول الصورة. أراها تكاد تتحرك، تحاول الخروج من الإطار.. يتسع الشق على الحائط ليلتهم صورتنا معاً.

أبحث عن سيجارة أنفث مع دخانها بعضاً مما أشعر به فلا أجد.. ارتديت معطفاً ثقيلاً يقينى برد الشتاء في الخارج.. تجاوزت الساعه الثانيه صباحاً وقل عدد الماره.. يتراقص أمام وجهى الدخان الخارج من فمى مع كل نفس أتنفسه.. يتشمم البائع رائحه الكحول في انفاسى

فيرمقنى بنظرة إحتقار، لا ابالى واناوله نقوده ساحباً من يده علبه السجائر وأقفل عائداً لشقتى.

أراها وهى تسير أمامى، لا أتبين ملامحها بوضوح في الظلام، أقترب منها أكثر مسرعاً أُسابق خطاى نفسها.. تلتفت إلى في ذعر فأراها بوضوح قبل أن تعدو مبتعده في خوف.. أضحك بصوت عال عندما ادرك إنها لم تكن هى.. يلتفت إلىّ أحد العابرين عندما يسمع صوت ضحكاتى قبل أن يخبط كفاً بكف ويكمل طريقه.

ألقيت معطفى لينضم لكومه الملابس بجوار الحائط.. إتسع شق الحائط ليلتهم ملابسى الملقاه بإهمال.. جلست في الركن المقابل له من الغرفه وقد بدأت أشعر بالخوف.. عالمى الصغير يتقوض وينهار منسحباً رغماً عنى ولا أقوى على المقاومة.. هتفت أنادى بأسمها في الفراغ المحيط فلم يجيبنى سوى صدى صوتى المكتوم.. إقترب بحذر من الشق أُحاول أن أسترق النظر بداخله، لم أرى سوى فراغ أسود أصابنى بالفزع.. ناديت أسمها مره أخرى، أبتلع الفراغ صوتى فلم أسمع صداه هذه المره.

جمعت صورها ورسائلها وكل ما يحمل رائحة ذكراها في كومه صغيره في وسط الغرفه.. حملت كومتها إلى حوض المطبخ، وضعت مبسم السيجارة بين شفتى، وببطء أشعلت عود الثقاب وجذبت بضعه أنفاس من السيجارة.. تأملت اللهب المتصاعد من عود الثقاب للحظات قبل أن

أُلقى به على كومتها لتـشتعل.. راقبـت الـنيران وهـى تـرقص رقـصتها المحمومه وقد أمسكت بكل ما يخـصها لتـسحبها هـى نفـسها معهـا إلى العدم.

عدت إلى غرفتى التي أتسع بها الشق على الحائط يكاد يلتهمهـا عـن بكره أبيهـا.. لم أكن أشعر بالخوف هذه المره، لم أشعر بـأى شـيء علـى الأطلاق! فكرت أننـى وللمـره الأولى في حيـاتى فقـدت إمكانيـه الـشعور بالألم، زال مع بـاقى المـشاعر.. شـربت كأسـى الأخـيره قبـل أن أتوجـه لأقف أمام الشق الذى أتسع مكوناً فجوه كبيره على حائط وسقف وأرضية الغرفـه.. تأملـت حـدوده البنيـه للحظـات، وبـدون ذره تـردد قفـزت لتبتلعنى تلك الفجوه وأغيب في ظلامها.

الطريق

تهالكتُ على المقعد الخلفى لأحد سيارات الأجرة بجوار النافذة في تراخ. وقف قائد السيارة بجوار سيارته تحت أشعه الشمس الحارقة ينادى على وجهته بلهجة ممطوطه لم أفهمها. لم يتبقى سوى راكبان أخران لتكتمل حمولة السيارة. نظرت للمقعد الأوسط، لم يكن جالساً به سوى شاباً يرتدى بذله كاملة برغم حرارة الجو التي لا تطاق، كانت بذلة لامعة براقة تسر الناظرين. بجواره كانت الأماكن الفارغة تنتظر شاغليها لتنطلق السيارة.

ملت بوجهى على زجاج النافذة المجاور ألتمس قليلاً من برودته. كانت الشمس قد أحكمت قبضتها على الموجودات في هذا النهار الخانق ولم يكن زجاج النافذة بإستثناء، كان ساخناً ملتهباً هو الأخر مثل بقيه الأشياء.

لم تمض دقائق حتى صعدت تلك الفتاة العشرينيه للسيارة، جلست

بجوار الشاب في منتصف المقعد. لم أكترث كثيراً أو ألق لها بالاً، لم أهتم كثيراً بوجهة السيارة أو بهذا العجوز الجالس بجوارى متكئاً على يد عكازه الخشبى في صمت، أراح ذقنه على ظهر يده اليسرى التي أغلق باطنها على مقبض العكاز. بدا مثلى سارحاً عن هذ العالم كليةً، لا شيء في مظهره الخارجي يدل على أنه ما زال على قيد الحياة سوى حركات صدرة المنتظمة في شهيق وزفير لهما نفس الإيقاع الثابت.

اغلقت عينى بقوه، ذكرنى الشعور بالدوار الخفيف الذى إجتاحنى بأننى لم أتناول طعام الإفطار بعد. لا أدرى حقاً ما السبب الذى غادرت من أجله شقتى هذا الصباح! لابد وأنه أحد تلك الأسباب التي تجعل المرء يغادر منزله ليسير وسط زحمة ألاف السائرين في الطرقات، لابد أن وراء كل منهم قصته الخاصة وسببه المقنع للتواجد تحت أشعة هذه الشمس القاسية التي لاترحم، بالتأكيد كان عندى أنا الأخر أحد هذه الأسباب، كنت متوجهاً لعملى أو لزياره صديقاً ما أو حتى لمجرد التسكع في الطرقات، لا يهمنى السبب كثيراً، فها أنا ذا جالساً في هذه السيارة منتظراً أياها لتتحرك إلى وجهتها التي لا تهمنى كثيراً أيضاُ.

أخيراً أكتملت السيارة وصعد أخر الركاب، كان غريباً ملفتاً للنظر، لا يوجد على ذراعيه سنتيمتراً واحداً لا يحمل ندبة أو جرحاً ما، ندبة طويلة تحتل نصف وجهه أمتدت من أسفل عينه اليمنى حتى نهاية

الرقبة، لا توجد شعره واحده علـى رأسـه الأصـلع اللامـع. جلـس علـى طرف المقعد بجوار الفتاه التي بان على ملامحهـا الإنزعـاج مـن الراكـب الجالس بجوارها. سألها الـشاب ذو البذلـه إن كانـت تفـضل أن يجلـس مكانها وتجلس هـى بجـوار النافـذة عنـدما رأى الإنزعـاج البـادى علـى ملامحها! وافقت على الفور وأعطته نظرة إمتنان على شهامته.

كنت أجلس خلف الفتاه مباشرة. تحركت الـسيارة لتنـدفع نـسمات الهواء الساخنة تتراقص حول وجهى، أغلق عينـى ثانيـةً وبـدأت أذنـى تتابع أصوات عجلات السيارة وهى تطوى الطريـق الأسمنتـى في رتابـه. فتحت عينى ثانيه وألقيت ببصرى للخارج، تدافعت الأشـجار وعواميـد الإنارة في الإتجاه المعاكس بسرعة وثبات، كان معظم أصـحاب الـسيارات قد قاموا بإغلاق نوافـذ سياراتهم لينعمـوا بنـسمات الهـواء الـتي تبثهـا أجهزة التكييف الداخلى، بالرغم من هذا كانت ملامحهم جامـده ثابتـة عابسة، لا تتغير وإن تغيرت الأشكال والوجوه، كان هناك شىء مشترك بينهم جميعاً لم أدركه. بدأت حبيبات العرق التي تكاثفت علـى وجهـى في التطاير ببطء بفعل الهواء القادم من الخارج.

وقع نظرى على يد الشاب ذو البذلـة وهـى تقـترب بـبطء مـن الفتـاة الجالسة بجواره، لم يبد عليها إنها لاحظت تلك اليد وظلت على حالهـا تنظر للطريق خارج السيارة وقد أرتسمت علـى شـفتيها إبتـسامة هانئـه

غافله.

توقفت السيارة في إحدى إشارات المرور، تابعت الضوء الأحمر الباهت الصادر من الإشارة، شاحب لا يكاد يرى في ضوء النهار لولا يد ضابط المرور التي تشير للسيارات للتوقف أو لتكمل المسير. العرق يغمر جسده وملامحه تصلبت على نفس الوضع لا تغيره، تحولت يده إلى ماكينة تتصل بشكل ما مع إشارة المرور نفسها.

مرت اللحظات ثقيلة بطيئة وكأنما الزمن قد توقف قليلاً ليلتقط أنفاسه. كان هناك بعض الأشخاص الواقفين على الرصيف، بعضهم يحتمى بالظل والبعض الأخر تغمره الشمس بضوئها، أحدهم رفع جريدة فوق رأسه يحتمي بها من أشعه الشمس، كان التعب والأرهاق باديان على الجميع بلا إستثناء. لسبب ما شعرت بأن كل هذا غير حقيقي، كانوا بوقفتهم تلك أقرب للجمادات من البشر، أنسحب الواقع وتركهم أقرب للوحه رسمتها يد فنان بارع لم يهمل أدنى تفصيله.

تحول ضوء الإشارة للأخضر وتحركت يد الضابط لتسمح للسيارات بالتقدم، تحركت السيارة مبتعده. إنتفض جسد الفتاه إنتفاضة خفيفة لا تكاد تلحظ عندما شعرت بيد الشاب الجالس بجوارها وهى تتلمس جسدها. أتسعت عيناها في صمت راسمه نظرة فزع أقرب لنظرة غزال وجد نفسه محاصراً من الذئب في أحد الأركان. لم تجرؤ على الصراخ

لسبب ما وإلتصقت بالنافذة أكثر وأكثر في محاوله بائسة للهرب من يد الشاب التي إنتهكت خصوصية جسدها بكل صفاقه.

تطوع أحد الركاب لجمع الأجره من الباقيين. أخرجت النقود من جيبى وناولتها للشاب ذو البذله، وعندما إلتفت ليأخذها لمحت إنعكاس وجهى على عدسات نظارته السوداء التي إبتلعت معظم وجهه. رأيتني شاحباً، مرهقا، أحاطت عينى الغائرتين هالات سوداء كثيفه. تأملت ملامح وجهى في زجاج النافذة بينما تتابعت في الخلفية عواميد الإنارة وأسلاك الكهرباء، أختفت الأشجار وبدأت تطغى رمال الصحراء على المشهد في الخارج، لم يتجاوز عمرى نصف عمر العجوز الجالس بجوارى ومع ذلك كنت أبدو أكبر منه عمراً بالرغم من جلده المتغضن الذى حفر فيه الزمن أخاديد وشقوق لا تنمحي.

كانت يد الشاب لا تزال تتحسس الفتاه المذعورة في ثقة، مال الرجل الأصلع الذى لا يخلو جسده من الندوب على أذن الشاب وهمس له ببضع كلمات إمتقع على إثرها وجه الشاب وفرت منه الدماء. ثم قام ليتبادل المقاعد مع الرجل الأصلع الذى جلس بجوار الفتاه تاركاً مسافة صغيرة تفصل بينهما. بالرغم من هذا لم تغير الفتاه جلستها المذعورة وظلت على حالها منكمشة بجوار النافذة.

وبالرغم من أن الرجل ذو الندوب لم يكن يجلس بجوار النافذه إلا أن

إنعكاس السماء بكل تفاصيلها كان واضحاً جلياً على رأسه الأصلع وكأنها مرآه. أمعنت النظر للإنعكاسات على رأسه فرأيت السحاب يتجمع ويتشكل ليحجب ضوء الشمس القاس.

لم تمر دقائق حتى طلب الشاب ذو البذلة من السائق التوقف لينزل، نظرت خارج السيارة، كانت أكوام القمامة تفيض على جانبى الطريق تصاحبها رائحه شنيعة أصابتنى بالغثيان للحظة، وفى ضوء الشمس رأيت التراب يغمر بذلة الشاب التي بانت التجعدات على أطرافها. تحركت السيارة وأنسحب الرجل الأصلع مره أخرى ليجلس على طرف المقعد تاركاً فراغ كبير بينه وبين الفتاه التي بدأت ملامحها تلين وتعود لطبيعتها مره أخرى. وضعت حقيبه كتفها بجوارها لتصنع حاجزاً واهياً علها ظنت أنه يحميها من المحيطين بها.

إنعكس وجهى على النافذة، رأيتنى أتقدم في العمر بسرعة رهيبة، أخذت التجاعيد تظهر على وجهى وغارت عيناى أكثر وأكثر. نظرت بجوارى فلم أجد العجوز جالساً، يبدو أنه غادر السيارة دون أن أشعر به، وجدت عكازه الخشبى يستند على المكان الذى كان يجلس به قبل أن يترك السيارة. فكرت أنه ربما نسيه.

توقفت السيارة في منتصف الصحراء تحوطها الرمال من جميع الجوانب، صاح السائق بأننا قد وصلنا لنهاية الطريق. أمسكت العكاز الخشبى مستنداً عليه وغادرت السيارة مع باقى الركاب.

زينب

تعودنا في قريتنا أن تسير الأمور برتابة ونظام لا يتغيران. قرية صغيره منسية من الحكومات ومن الزمن نفسه، تحيا على هامش الحياه، لم يتغير بها شيء على مر الزمن، منذ ولدت وكل ما حولى هو كل ما حولى، أرض عم أحمد العجوز الواسعة بجوار بيتنا والتى يزرعها بنفسه مع الأجراء، تقدم عم أحمد بالعمر ومع ذلك يصر على النزول لأرضه بنفسه. الساقية القديمة التي لم أشهدها تعمل قط، الجامع الكبير في منتصف القرية حيث يتجمع أهل القرية كل يوم جمعة للصلاه، تأكلت حوائط الجامع الخارجية وترك بها الزمن أثار واضحة، ولكن ظل الجامع نفسه على وقفته المهيبة الشامخة ليلاً حيث تضاء المئذنة وتستطيع رؤيتها من أى مكان بالقرية. الساحة الخالية بجوار السوق كعجوز حانية تحتضن الأطفال من صغار أهل القرية يلعبوا بها ويمرحوا إلى أن يتقدموا في العمر ويتركوا اللعب بها

وينصرف كل إلى حياته الخاصة ويخلفهم في المكان أطفال جدد.

نادراً ما يزور قريتنا غرباء، وكل شخص عندنا يعرف باقى سكان القرية. يتلاقى الرجال ليلاً في مجالسهم المعتاده، فكبار رجال القرية يتجمعون يومياً على المقهى الكبير القريب من الساحة، يدخنون الشيشة ويتشاورون في تجارتهم وفى أحوال أهل القرية. وهناك أيضاً مقهى عم سعيد القريب من الترعة التي تشق بلدنا لنصفين حيث تجد شباب القرية يدخنون وتسمع أحجار الدومينو وهى تصطدم بقوه على الرقع الخشبيه، وفى أحد الأركان المظلمة في المقهى تعود أن يجلس بضع رجال مهملون منسيون يدخنون الحشيش في صمت، لا يتكلموا إلا لماما. أما عن نساء أهل القرية فكان السوق هو منفذهم لتبادل الشائعات والأخبار، وفى أيام الجمع حيث يتجمع الرجال بعد الصلاه على المقاهى تجد النساء وقد تشكلوا في جماعات صغيره قوامها أربع أو خمس سيدات يجتمعن في بيت أحداهن وقد تحلقن حول الفرن، تتناثر على ملابسهن بقايا عجين الخبز، يخبزن سوياً ويتناقلوا أخبار الحديث.

يحد القرية من الجهة الشرقية والغربية ومن الجنوب قرى أخرى صغيرة، لا تختلف حياه سكانها عنا كثيراً، أما من الناحية الشمالية فيحدها سور طويل تهدم في أكثر من موضع، سور قديم لا يتذكر أحد من بناه، منذ ولدنا وجدنا هذا السور قائم يفصل بيننا وبين الطريق السريع

الواصل بين المحافظة والقاهرة. في صغرنا كنا نخاف وترتعد أوصالنا من السور الكبير، كنا نسميه سور العفاريت، فقد دأب أبائنا والكبار من أهل القرية على الترديد على مسامعنا العديد من الحكايات المخيفة عن سور العفاريت هذا ليمنعونا من اللعب بجواره، وعندما كبرنا أدركنا أن سور العفاريت ليس إلا مجرد سور مثل باقي الأسوار، وأن أهلنا إنما قالوا ما قالوا خوفنا علينا من عبور السور خشيه أن تصدم أحدنا أحد السيارات السريعة الماره على الطريق السريع.

فرغ الرجال من أداء صلاه الجمعه بالجامع الكبير وتجمعوا كعادتهم على المقهى، وتجمعت النساء كعادتهن في البيوت. نزلت (زينب) من أحد السيارات على الطريق السريع تودعها عيون السائق والركاب من الرجال في حسره، كانت ترتدى عباءه ضيقه تشي بمفاتنها، وتكحلت عيناها بالسواد فبدت وسط بياض بشرتها الشاهق كجوهرتين، أنحسر غطاء وجهها للوراء قليلاً فظهر من تحته شعر بلون أسود وبضع خصلات حمراء فبدا كأنه الليل يعانق دماء الفجرالعذراء في إتساق وتناغم. وقفت للحظات قليله أمام السور الكبير، ثم عبرت بقدميها فوق أحد أجزاء السور المتهدمه، لم يستغرق عبورها للسور سوى لحظة، لحظة واحده، قصيره، عابره، قليله الأهميه لعمر الزمن، ولكن من قال ان اللحظة لا يمكن أن تغير مجرى الزمن

والأحداث جميعها؟ فقد تبدو اللحظة قصيره في عمر الأنسان لا يعيرها إلتفاتاً، ولكن يبقى أثر اللحظة عليه لا ينمحى لأبد الدهر.

سارت (زينب) بخطى هادئة، واثقة، شأنها شأن من يعرف طريقه جيداً. مرت في طريقها على المقهى الكبير، نظرت بطرف عينيها إلى الجالسين الذين دارت أعناقهم مع خطواتها، وأشرئبت رؤسهم في تساؤل عن الغريبه الفاتنة التي حلت على قريتهم دون سابق إنذار، تعمدت التأني في مشيتها بجوار المقهى الكبير بالذات، تعمدت أن تمنحهم فرصة النظر إليها بتمعن، كانت تحب أن ترى تأثيرها على الرجال، تلك النظره في أعينهم تمنحها إحساساً بالتفوق يملؤها ثقة بالنفس، دلفت إلى الشارع المقابل للمقهى ودارت حول احد البيوت لتقف أمام باب البيت، أخذت تعبث بيدها في حقيبتها للحظات، ثم أخرجت مفتاح وأدخلته في ثقب الباب المغطى بالتراب، أدارت المفتاح ووجهها يحمل ملامح القلق، وعندما سمعت صوت تكه القفل وهو ينفتح علت وجهها ملامح الأرتياح، دفعت الباب فأثارت الغبار المتراكم على ضلفتيه من سنوات، دلفت (زينب) من الباب وأغلقته ورائها في هدوء.

وعلى المقهى كان حديث اليوم بأكمله عن الوافده الجديده، ترك الرجال أحاديثهم المعتاده وتوقفوا عن لعب الدومينو:

- مين دى يا رجاله؟ حد يعرفها؟

- أنا أول مره أشوفها في حياتى.

- بس دى دخلت البيت اللى في وش القهوه، أنا عمرى ما شفت حد ساكن في البيت ده.

- يمكن يا جماعه دى واحده من أهل البيت وجايه تنضف البيت، متنسوش بردو أنه متفتحش من سنين.

- هو مين أصحاب البيت ده أصلاً.

- أنا سمعت قبل كده أن كان في واحد ساكن في البيت ده أسمه الحج (إسماعيل)، بس أنا اعرف انه سافر مصر من ييجى خمستاشر سنه فاتوا ومرجعش البلد هنا ولا مره طول عمره.

- لأ انا سمعت أن الحاج (إسماعيل) ده باع البيت قبل ما يسافر، بس محدش عمره شاف اللى اشترى البيت، ناس كتير كانوا عايزين يشتروا البيت ده بس معرفولوش صاحب.

- طب دى لو واحده من أهل البيت أزاى تيجى من غير راجل، بقا معقول بردو يا جدعان أن واحد يسيب حرمته تيجى لوحدها كده حتى لو هتنضف البيت عشان يقعدوا فيه وهو عارف أن البيت في وش قهوه.

تنحنح أحد الرجال فإلتفت الجميع إليه، كان رجلاً عجوزاً يبلغ من العمر أرذله قائلاً:

- أنا كنت أعرف الحاج (إسماعيل) زمان، كان راجل محترم والبلد كلها بتحبه، بس اللى حصل للراجل المسكين يا ولداه لا كان على البال ولا على الخاطر. في يوم جاله واحد وقاله روح دلوقت بص علـى أرضـك وأستر عرضك، الراجل لما سمع الكلام ده جرى على حتـه الأرض اللـى حيلته وهناك لاقى مراته نايمه في حـضن واحـد مـن الأنفـار، الراجـل أتجنن وكان عـايز يقتلـهم، الراجـل ضـربه و زقـه في الطـين وجـرى، والوليه إختفت من قدامه. الراجل مستحملش الفضيحه ولسان النـاس، راح واخد بنته على القاهرة ومن ساعتها مسمعناش عنه حاجه.

- والله يا خبر النهارده بفلوس بكره يبقـى بـبلاش، كلـها يـومين وهنعرف كل حاجه.

* * * * *

فى اليوم التالى لمجىء زينب أنتشر نبأ وصلها في القريـة كالنـار في الهشيم، أخذت القرية كلها تتسائل في فضول عن القادمة الغريبة، زاد عدد رواد القهوه قليلاً عن المعتاد وأخـذت عيـون الرجـال تحـوم حـول البيت في محاولة لغبر سر قاطنتـه. وكانـت زينـب مـن وراء خـصاص الشباك تراهم وتدرك في أعماقها أن فضول أهـل القريـة يكـاد يقتلـهم، كانت تتلذذ بهذه الفكرة، نظرت حولها داخل المنزل، كان الغبار يغطى كل شيء وقد أستحال لون الأثاث الذى بلغ من القدم ما يؤهله لأن يوضع

في متحف للأثار، تذكرت يوم غـادرت القريـة مـع أبيهـا مـن سـنوات مضت، أغمضت عينيها، كانـت تـستطيع دومـاً إسـتدعاء ذلـك اليـوم في ذاكرتها كأنه البارحه، كانت طفلة صغيرة وقتها، كل ما يملؤها هماً هو مغادرتها لأصدقائها الذين تربت معهم من الصغر، ظلت وقتاً طويلاً بعد ما غادروا القرية تتذكر الساحة بجوار السوق.

أثنى عشر عاماً مضوا ولا تزال تفاصيل القريـة محفـورة في ذهنهـا. تذكرت كيف أيقظها والدها ذات صباح وقد وضع كل ملابسها في حقيبة ناولها إياها، خرجا من البيت معاً ذلك الصباح ولم تزل أثار النوم على وجهها الصغير بعد، سارت بجانبـه ويـدها الـصغيرة تحتـضن إحـدى يديه، وفى يده الأخرى حمل حقيبة جمع بها ملابسه، سارا سـوياً إلى الجهة الشمالية حتى وصلا لسور القرية، وكرد فعـل غريـزي انكمـشت (زينب) عندما رأت أنهم متجهون لسور العفاريـت وأحكمـت قبـضتها على يد والدها تلتمس الأمان، عبرت معه السور ثم عبرا الشارع ووقفـا لبعض الوقت في انتظار سيارة تحملـهما إلى مـصر، يومهـا ألقـت نظـره أخيرة على القرية التي ولدت وتربت بها وهى تعانق أول شعاع لشمس الصباح، لم تكن تعلم وقتها لماذا أيقظها والـدها من النـوم في مثـل هـذا الوقت المبكر، ولم يدر بخلـدها وقتهـا أن والـدها قـرر مغـادرة القريـة للأبد.

فتحت (زينب) الشباك وقد ارتدت عباءة سوداء ضيقة وربطت مَنديلاً أزرقاً حول شعرها الذى أنساب على كتفيها في نعومة، تعمدت أن تفتح الشباك المقابل للمقهى. تعلقت عيون الرجال الجالسين في المقهى على (زينب) التي بدأت في تنظيف المنزل ولم تعرهم إلتفاتاً، كانت واثقة تمام الثقة إنها بفعلتها هذه إنما تلهب خيالاتهم وتثير حفيظتهم في آن واحد، إلا أنها لم تكترث كثيراً، بل كانت في الواقع تشعر بالثقة وبأن خطتها تسير على النحو الذى ترجوه بالضبط. بدأ فيض الذكريات يجتاحها، تذكرت يوم وصلت القاهرة مع أبيها رحمه الله عليه، تذكرت كيف شعرت بالخوف من الزحام وكيف أزعجتها كثرة السيارات وضجيجها الذى لم تعهده من قبل، رأت زحام من البشر وكل منهم يسير إلى وجهته ولا يعير غيره إلتفاتاً، وبدون وعى منها وجدت نفسها تقارن بين القاهرة التي تراها لأول مره وبين قريتها الصغيرة التي يعرف كل من فيها الأخر ويلقى عليه السلام في مراحه ومغداه، تذكرت الهدوء والسكينه اللذان يغلفان القرية فشعرت بالنفور من المدينة الصاخبة وسألت أبيها عن موعد عودتهم للقرية، فلم تأتيها منه سوى إجابة مبهمة.



دخل (مسعد) العسكرى المقهى ووجهه يحمل علامات الجد، كانت

تبدوا عليه إمارات التفكير العميق. ألقى التحيه والسلام على الجالسين، وبعد أن جلس بجانبهم في مكانه المعتاد ضرب كفاً على كف متمتماً:

- أستغفر الله العظيم، اللهم اخذيك يا شيطان، إن بعض الظن أثم.

ألتفت له الجالسين في إهتمام وقال له أحدهم:

- خير يا (مسعد)، حصل حاجه كفانا الشر؟

قال له (مسعد):

- والله ما عارف أقول أيه، أصل الموضوع فيه أعراض وأنا مش عايز أرتكب ذنوب.

بدا عليهم جميعاً اللهفة والتشوق لمعرفة ما في جعبة (مسعد) من أخبار فقد كان دائماً ما يأتيهم بأخبار ومصائب القرية بحكم عمله في القسم، وقال له أحدهم:

- يا جدع أتكلم قلقتنا، في إيه؟

أشار (مسعد) بغضب إلى البيت المقابل للمقهى قائلاً:

- كله من الشيطانة اللى نزلت علينا من السما دى، جات عندنا القسم بيجى تلات أربع مرات، وكل مرة تيجى تدخل تقعد عند البيه المأمور بالساعة والساعتين، ولما تيجى وتقولى عايز أدخل للبيه المأمور، أدخل أنا عشان أبلغه ألاقيه بيقولى دخلها ومتدخلش حد دلوقتى ولا

أنت تدخل غير لما أندهلك.

قال أحدهم وصوته يحمل علامات القلق:

- قصدك أيه بالظبط يا (مسعد)؟

قال له (مسعد) في نبرة يشوبها الحنق:

- قصدى أن البيه المأمور جايلنا من البندر وسمعته سابقاه، ليا واحد زميلى كان شغال معاه قبل ما ييجى هنا. الراجل ده قالى أن المأمور ده عينه زايغة وبتاع حريم، والوليه دى بجحه وعينيها يتدب فيها رصاصة. بقا بذمتكوا في واحدة تبقى ساكنة في وش قهوة زى كده وتفضل فاتحة الشباك طول النهار وهى رايحة جاية بالمحزق والملزق كده؟ خلاص مفيش خشا ولا حيا؟ ما الواحد بردو لازم يشك يا جدعان.

قال أحدهم في تردد:

- أنا سمعت كلام كده من (جلال) صبى المعلم (عوض) الجزار، بس مكنتش مصدق، قالى أن الوليه اللى أسمها (زينب) دى كل ما تروح المحل تقف مع المعلم (عوض) تضحك وتهزر وتتقصع، ولما المعلم بيشوفها بيسيب اللى في أيده ويجرى يقف معاها، وهى تاخد اللحمه اللى تاخدها والمعلم ميرضاش ياخد منها فلوس، وأنتوا عارفين المعلم (عوض)القرش بيبيطلع من جيبة بالعافية، الله أعلم بقا بتدفعله إزاى.

وجموا جميعاً وقد خيم الصمت على المقهى، إلى أن قال أحدهم:

- طب وبعدين يا رجاله، هنفضل قاعدين كده ومش هنعمل حاجه ونسيب مره تمرمغ شنباتنا في التراب؟

سرت همهمات موافقة بين الحاضرين وقال أحدهم وهو رجل كبير السن بدا انه يتمتع بينهم بالهيبة والأحترام:

- وحدوا الله يا رجالة، إن بعض الظن أثم بردوا، الكلام اللى بتقولوه ده مفيش دليل عليه، لما يبقى معانا الدليل ساعتها يبقى من حقنا نعمل اللى أحنا عايزينه.

قال (مسعد) في غيظ:

- دليل أيه يا حج (عبيد) بقولك بتقعد مع البيه المأمور بالساعة والساعتين لوحدهم.

وصاح أخر:

- يا حج أنت نسيت هى تبقى بنت مين، وعلى رأى المثل أقلب القدره على فمها تطلع البت لأمها، العرق بيمد لسابع جد يا حج، ودى أمها لا كانت تعرف عيب ولا حرام وفضحت جوزها وسط رجاله البلد.

أشار الحاج (عبيد) إلى أثنين من الجالسين قائلاً:

- والمثل بردوا بيقول يا خبر النهارده بفلوس بكره يبقى ببلاش، أنا هروح مع الرجاله دى نكلمها، وهنطلب منها بالأدب تقفل شباك

البيت اللى فاتحاه على طول ده يمكن هى تفهم من نفسها وتتلم.

نهض الرجلان ليتبعا الحاج (عبيد)، و ولى ثلاثتهم وجوههم شطر منزل (زينب) التي شاهدتهم من نافذة البيت متجهين نحوها وخمنت السبب، كانت قد أعدت عدتها لهذا الموقف الذى كانت واثقة من حدوثه قامت مسرعة إلى الهاتف لتجرى مكالمة. وفى هذه الأثناء كان الرجال الثلاثة قد بدأوا السير في اتجاه البيت إلى أن سمعوا أصوات صياح تقترب من المقهى نحوهم، ألتفت الرجال فرأوا موكب ألفوه ورأوه من قبل، كان ألصبيه الصغار من أهل القرية يتصايحون ويتدافعون حول رجل في منتصف العقد الثالث من عمره، أسودت بشرته بفعل الشمس وتراب الأرض، يرتدى جلباباً قصيراً ممزقاً ويسير عارى القدمين من أى نعل، ذو شعر طويل أشعث ويبدوا في عينيه نظرات البله والغلفة ممتزجة بالخوف من الصغار الذى أخذوا يضربوه بأيديهم وما طالته أيديهم من أحجار صغيرة وروث البهائم من الأرض. كان (عطية) عبيط القرية الأوحد الذى يسير في طرقاتها لا يلوى على شيء وليس له طريق محدد، يطعمه أهل القرية من مخلفات أطعمتهم، وفى الليل يلتحف (عطية) السماء في أى مكان يترائى له أن ينام فيه، لا يعرف له أهل ولا عائلة، وكان أطفال القرية كلما شعروا بالملل ورأوا (عطية) في الأنحاء القريبة يبدأوا زفتهم المعهوده له بالشتائم والصياح متجمهرين حوله إلى أن يبدأ

في الهرب منهم، فيبدأوا بألقاء ما يجدوه على الأرض وقتها عليه ويتبعونه إلى أن يحل بهم التعب فيتركوه وشأنه.

جرى (عطية) مسرعاً إلى المقهى و وقف ينظر للرجال الجالسين وعلى وجهه نظره تجمع بين الخوف والتضرع إليهم لأنقاذه من الصغار الذين توقفوا عن الصياح أحتراماً للكبار الجالسين على المقهى وأن تجمعوا خارج المقهى بأنتظار (عطية) ليخرج، وقف أحد الرجال وهو يصيح على الأطفال قائلاً:

- يلا ياض يا ابن الكلب أنت وهو من هنا، عيال متربتش صحيح، هقول لأبوك منك له ياض أنت وهو، يلا إنجروا من هنا.

فر الصغار مبتعدين وبانت علامات الأطمئنان والسعادة على وجه (عطية) الذى توجهه للرجل الذى أخاف الصغار وهو ينحنى ليقبل رأسه قائلاً في صوت مضحك نوعاً ما:

- شكراً يا عم، ربنا يخليك.

ثم خرج من المقهى مسرعاً لا يلوى على شيء في الأتجاه المعاكس للأتجاه الذى سار به الأطفال، وأستأنف الرجال الثلاث مسيرتهم لبيت (زينب) وقد توقفوا عن الضحك على (عطية). طرق الحاج (عبيد) على باب البيت ففتحت له (زينب) الباب وعلى وجهها إبتسامة تجمع بين الدلال والثقة بالنفس، لم تكن تغطى شعرها فنظر الرجال للأرض

محرجين، خاطبها الحاج (عبيد) قائلاً:

- السلام عليكم.

ردت عليه قائلة:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، خطوه عزيزة، أتفضوا أعملكوا حاجة تشربوها.

لم يخفى على الحاج مغزى دعوتها لهم للدخول ولم ينكر على رجال القرية شكوكهم في دخيله نفسه، قال لها:

- لأ، أحنا هنتكلم معاكى كلمتين كده من على الباب.

قالت له والإبتسامة لا زالت تزين وجهها:

- خير إن شاء الله يا حج؟

- دلوقت أنتى عارفه ان البيت في وش قهوة، وحضرتك عارفة أن البيوت حرمات وواحده زيك لازم تراعى حاجة زى كده.

وعلى الفور إختفت الأبتسامة من وجهها وحلت محلها ملامح الغضب قائلة:

- واحده زيى إزاى يا حج، هو أنا فيا حاجة غلط لا سمح الله!

- قصدى واحدة زيك عايشة لوحدها من غير راجل المفروض تراعى كلام الناس.

- قصدك أيه بالظبط يا حج؟

- قصدى أن أحنا جايين بالنيابة عن الرجالة في البلـد نطلـب منـك تقفلى الشباك اللى في وش القهوة ده. دى قهوة يعنى بيقعد فيها رجاله على طول، والناس متدايقة من موضوع الشبالك اللى مفتوح على طول ده.

تعمدت أن ترفع صوتـها قائلة:

- والله يا أخويا اللى متدايق يودى وشه الناحية التانيـة وميبـصش على الشباك. أنا حره في بيتى أقفل الشباك أو أفتحـه.

وأضافت بنبره أهدأ وإن شابها التحدى:

- ثم البيت جوا حر والشباك بيدخلى شوية هوا عشان متخنقش.

قال الحاج (عبيد) في غضب:

- أنا جيت أقول الكلمتين اللى عندى، رجاله البلد مـش عـاجبهم اللى بيحصل وقد أعذر من أنذر.

تعالى من بعيد صوت سيارة شرطة تقترب، إتجهت زينـب للـشباك في حركة فجائية وأرتفع صوتـها وهى تقول:

- والله بقا اللى مش عاجبه الشباك المفتوح من رجاله البلـد يـدورلوا على حته تانية يقعد فيها.

تلقى الجالسين على المقهى كلمات (زينب) بـصدمة بالغـة، وذهلـوا

من جرائتها وتحولت صدمتهم إلى غضب ووقف بعضهم وقد أنذرت ملامحهم بالشر، وقبل أن يتحرك أى منهم وصلت سيارة شرطة تابعة للمركز ووقفت أمام البيت ونزل منها أربع عساكر وضابط شرطة، وجه ضابط الشرطة كلامه للحاج (عبيد) قائلاً:

- خير يا حج في حاجه؟، أحنا جانا تليفون من الست (زينب) بتقول أن في رجاله بيتهجموا عليها.

قال له الحاج (عبيد) وقد أدرك أن للمأمور يد في ما يحدث:

- خير يا حضره الظابط، أحنا كنا جايين نقول للست كلمتين وخلاص قلناهم.

وقفل الرجال الثلاثة عائدين للمقهى. بينما وقف الضابط يتحدث قليلاً مع (زينب) ثم صعد إلى سيارة الشرطة يتبعه إثنان من العساكر بينما وقف الأخران على باب البيت لحماية قاطنته التي دخلت البيت وأغلق الباب ورائها وقد علت على شفتيها إبتسامة ظافرة، فقد سارت خطتها على ما يرام.

لم تنسى يوماً كيف أذاق أهل القرية والدها من الذل والهوان ما أضطره أضطراراً لهجر القرية التي نشأ بها و أستكان إليها، كانت والدتها خاطئة وذلت عن الطريق القويم، ولكنها لن تنسى الألم الذى كانت تراه على وجه والدها في غربته بالقاهرة التي لم يكن له فيها

صديق أو قريب، لم يتحمل نظرات أهل القريـة وتلميحـاتهم ففـر منهـا والناس نياماً كاللصوص والهاربين، فر والدها إلى حيث لا يعرفـه أحـد ليذوب وسط تيار الناس المتدفق بالقـاهرة، لم يفعـل والـدها مـا يـشينه إطلاقاً، بل بالعكس كان أهل القرية يحبونـة ويذكرون دوماً أسمه مقترن بالخير. فلماذا حاكموه وهـو المجنـى عليـه؟، أصـدروا عليـه حكمهـم بوصمه بالعار باقي عمره. كان له أرضه التي يزرعهـا ويأكـل مـن عمـل يديه، كان معززاً مكرماً في قريته وكان مجرد حـارس عقـار بالقـاهرة، وكانت هى قبلة للطامعين من ذوى النفوس الضعيفة بجـسدها الملفـوف وفتنتها الطاغية، كانت تعرف أنها فاتنة وكانت تدرك تأثير جمالهـا على الرجال، أدركت أنها لو تمكنت من المأمور فسيصبغ عليها حمايته وستملك القوه والحماية من بطش أهل القرية، وكانـت تعـرف أن المعلـم (عوض)الجزار يمتلك أكثر من نصف أراضى القريـة وكلمتـه مـسموعه بين أهلها، فهو من يفتح بيوت العديد من الفلاحين وهو وحـده القـادر على إغلاقها، وطالما ملكت المعلم (عوض) فلن يجرؤ أحـدهم علـى مـس شعرة واحدة من رأسها. لقد أقسمت يوماً على أن تذيق أهل القريـة مـن الذل ما أذاقوه لوالدها العجوز، وها هى تبر بقسمها.

* * * * *

أختلفت الأحوال في القرية بعد هذا اليوم، هجر الرجـال مجلـسهم

المعتاد وأتخذوا مقهى عم (سعيد) القريب من الترعة ملاذاً لهم، فعلـوا هذا مضطرين بعد أن أبقى المأمور علـى العـسكريان أمـام بيـت (زينـب) تحسباً لما قد يفعل أهل القرية، وبدون إتفـاق مـسبق بيـنهم لم يعـودوا لذكر هذ اليوم بعدها أبداً، فما حدث يومها كان وصمه عار على جباهم، كان عجزهم عن التصرف يومها يكاد يقتلـهم كمـداً. تعرضـت (زينـب) بعدها لبعض المضايقات في السوق من نساء القرية، إلا أنها كانت تعرف كيف ترد لهم الصاع صاعين، ولما لم يكن لها رادع فقد إنطلقت تسب هذه وتتشاجر مع هذه إلى أن كفوا عن ملاحقتها وأثروا أن يتجاهلوها تماماً.

لم تعد (زينب) تذهب للقسم كما أعتادت وبدأ المأمور يذهب لبيتـها بنفسه بحجه تقفد العـساكر المعيـنين للحراسـة هنـاك، وبفعلتـه هـذه تأكدت شكوك أهل القرية وأن لم يفعلـوا شـيئاً حيالهـا وأثـروا الـصمت خوفاً من بطش المأمور ومركزه.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذى لن ينساه أهل القريـة مـا حيـوا، يومهـا سمع الرجال أخبار عن مقتل (عطيه) أبله القرية، وقضى الرجال نـهار هذا اليوم يتسائلون في حـيره عمـن يريـد قتـل (عطيـه)؟ ومـا أن بـدأت الشمس تجمع خيوطها الذهبية عن القرية في طريقها للغروب حتى جاء (مسعد) العسكرى بالخبر اليقين، عرف الرجال أن (عطيه) رحمـه الله بات يومه في حديقة البيت الذى يـسكنه المـأمور، وفـى الـصباح وجـده

المأمور واقفاً في حديقة البيت ينظر إلى أحد نوافذ البيت وقد فغر فاه في دهشة، كانت زوجة المأمور المصون تستحم وهى مطمئنه من أعين الغرباء فسور الحديقة العالى يحميها من أعين المتطفلين، إلا أن (عطية) الذى قضى قدره عليه بأن ينام ليلته في حديقة المأمور كعادته في النوم في أى مكان يترائى له ليلاً أن ينام فيه رأها وهى تستحم، ولما رفع المأمور رأسه للنافذة حيث ينظر (عطية) ورأى جسد زوجته العارى، جن جنونه وأخرج سلاحه وأردى (عطية) بطلقتان مات المسكين على فورهم، وأمر المأمور بتقييد الجريمة ضد مجهول.

إجتاح الرجال الغضب للجريمة البشعة التي أرتكبها المأمور فجميع قاطنى القرية يعلم بأن (عطية) ليس إلا أبله لا يدرك من أمره شيئاً، تذكروا يوم أرسل المأمور سيارة شرطة لحماية عاهرة، تذكروا كيف أعجزهم الخوف وغل ايديهم وقتها، وها هى الأيام تمر بدورتها ليجد المأمور نفسه مدافعاً عن شرف أهل بيته ضد رجل أبله لا يميز بين الصواب والخطأ. وهل يدافع المأمور عن شرفه ويعجزون هم؟ أليس وجود (زينب) في حد ذاته طعنة نجلاء لشرفهم وشرف القرية بأسرها؟

سرت الكلمة بين الرجال، وللكلمة سحرها في تزكيه النيران الخامده بالصدور، وبحلول الليل خرج الرجال من كل حدب وصوب يحمل كل منهم مشعلاً يضيء الطريق لحامله، كان المشهد مهيب

بالفعل، كان الصمت يغلفهم بردائه ونيران المشاعل توجههم إلى بيت (زينب)، أقسم كل منهم بداخله على القصاص من التي أذلتهم وأحنت هاماتهم. وصل الرجال لبيت (زينب) ودق أحدهم الباب فلم يجد مجيب، كسروا باب البيت وأقتحموه بعنف فلم يجدوا (زينب).

لم يعلموا بأن المأمور كان على علم بما أنتووه وأرسل لزينب سيارة شرطة حملتها لأول الطريق ومن هناك أستطاعت ركوب أحد السيارات عائده إلى القاهرة، لم يكن المأمور بقادر على تغطية جريمة أهل القرية في حال قتلوا (زينب) ولم يكن يرغب بحدوث جريمتين في يوم واحد وهو المعروف عنه بأسه وصرامته اللذان زكيا شخصه لتولى منصب المأمور بالقرية، تكفيه جريمته التي يحاول سترها.

أدرك رجال القرية أنهم تأخروا كثيراً مع (زينب)، ولكن بعد فوات الأوان، لم تعد المياه لمجاريها بعد هذا اليوم، رحلت (زينب) وقد تركت في صدورهم وعلى وجوههم بصمتها، لقد أخذت (زينب) بثأر والدها، ولفتره طويلة لم يستطيع رجل من رجال القرية أن يسير مرفوع الرأس، كانت ذكرى (زينب) تخيم على المكان بقوه، ولكن الأيام تمر وتحمل في طياتها الذكريات، وبعد فتره من الزمن نسى أهل القرية أو تناسوا ما حدث، ولم يعد أحد يذكر الفاتنة التي حلت على قريتهم ذات يوم لتغير مجرى حياتهم كلها.

عنتر الأسود

لحارتنا جذور ضاربة في أعماق التاريخ. لا تغير السنون ملامحها، ولدت بها ونشأت فيها وأصبحت شاهداً عليها، تغير العالم حولنا وزحف التقدم على كل نواحى الحياة وبالرغم من ذلك لم تتأثر حارتنا كثيراً بما يحدث بالعالم الخارجى. على مدخلها شجرة عجوز تخفيها عن أعين الفضوليين من الغرباء وتحفظ أسرارها لأبنائها فقط. وعلى المدخل الأخر تقع ورشة عنتر الحداد، كان وما زال عنتر فخر حارتنا وحاميها الأول. برغم سنوات عمره التي تجاوزت السبعون عاماً إلا أنه كان لا يزال محتفظا بحيويته بشكل لا يصدق، يجلس بجسده الضخم على باب الورشة يدخن أحجار الشيشة فيحيط دخانها بوجهه جاعلاً منه كائناً شبه أسطورياً لا يشيخ أبداً ولا يتقدم به العمر. طويل القامة، عريض المنكبين، أجعد الشعر أفحمه، أسود البشرة، أنف ضخم أفطس. تتناقل الألسنه في الحارة أن ملامح عنتر هذه لم تتغير منذ أن كان شابا

في العشرينات من عمره. فحتى الزمن وتعاقب الأيام لم يستطيعا أن ينالا منه.

لا يوجد طفل في حارتنا لا يعرف قصة عنتر الأسود، إلتصق به هذا اللقب لشدة سواد بشرته التي تجعله لا يكاد يُرَى إذا حاك الليل ظلمته وإختفى القمر من السماء، قصت على جدتى قصة عنتر في أحد ليالى الشتاء وأنا ملتصق بها طلبا للدفء، لم تكن الكهرباء قد دخلت حارتنا وقتها، كانت الحكومة ترفض الإعتراف بوجودنا من الأساس، فحارتنا لم تكن داخل التقسيم العمرانى، لم يكن لها وجود على خرائط الدولة، لم نمثل للحكومة سوى أشباح لا وجود لها، والأشباح لا تحتاج الكهرباء.

تبرق عينا جدتى في ظلام الغرفة وهى تسترجع ذكرياتها، أشعر بيدها تداعب شعرى وصوتها المشروخ ينقلنى لدنيا الأحلام فأكاد أشتم رائحة الخرابة التي كان يقطن بها عنتر.أتخيله تنين خرافى من الذين تمتلئ بهم قصصى، أسود اللون ينفث النار في ما حوله غاضباً، تتسع عيناه الحمراوان لتلتهما ما يقف في طريقة، يفرد جناحية فتقع عمارتنا وتتهاوى أنقاضها لتتساوى بأرض الحارة الترابية. تحكى لى جدتى كيف كان عنتر طفل صغيرا يقتات على ما يجده أمامه وما يمّن عليه به أهل الحارة، وفى الليل يأوى لتلك الخرابة يحتمى بها من المجهول،

شب عنتر وسط كلاب حارتنا الذين تعودوا النوم أيضا في تلـك الخرابـة، كلاب حارتنا أضخم من باقي الكلاب العادية الـتي تراهـا في كـل مكـان، يروى بعض العجائز من سكان الحارة أنه قبل أن يـستقر البـشر في هـذه المنطقة كان يسكنها الكلاب والضباع الذين أنهكهما الـصراع فيمـا بيـنهم إلى أن ظهرت بينهم سـلالة تجمـع بـين الأثـنين بـشكل مـا، ومـن هـذه السلالة تنحدر كلاب حارتنا. كانت تلك الكـلاب تـثير الرعـب في قلـب سكان الحارة إلى أن عاش بينهم عنتر فاستأنـسهم بطريقـة مـا. وبعـد أن قوى عود عنتر أختفت تلك الكلاب فجأة ولم يعد يراهم أحد.

كان قوى بشكل مخيف، ولكنه بالرغم من ذلك لم يتعالى على النـاس بقوته تلك. لم يؤذ مخلوقاً سوى من بدأ بإيذائه، كان مـدافعاً لا مهـاجم. دائم التسكع يستجلب رزقـه مـن هنـا وهنـاك، أشـتغل بـبعض الأعمـال اليدوية لفترات متقطعة، لم يكن يطيق القيود التي يضعها عليـه أربـاب عمله، بالرغم من أن الشارع كان بيته ومسكنه إلا أنــه كـان يتمتـع بقـدر كبير من الكرامة والإعتزاز بالنفس. لم يهوى عملاً مثل ما أحـب العمـل كحداد، تراه يهوى على الحديد الساخن بمطرقته يكاد يفتته، فيتـشكل له الحديد كما أراد ويصبح عجينة لينه في يديه، تختلط حبيبـات عرقـه بالأتربة والأوساخ ولكنه بالرغم من ذلك كان يبتـسم في سـرور هاويـاً لمـا يفعل ومحباً له. وبالمقابل كان صاحب الورشة يقـرب عـنتر منـه ويغـدق

عليه من عطفه، كان أمهر عمال ورشته على الإطلاق، ساعده المعلم على تأسيس عشة صغيرة بالخرابة بعد أن نظفها عنتر وجعلها صالحة للعيش الأدمى فأصبح له سقف يأويه من تقلبات الجو وغدره.

رفع عنتر صيت حارتنا وجعلها مهابة بين جيرانها بعد أن تصدى لرجالهم بضع مرات، حاولوا فرض إتاوات على سكان الحارة ففوجئوا بعنتر يخرج عليهم شاهراً هراوته يهوى بها ذات اليمين وذات الشمال ففروا يلملمون ورائهم مصابيهم ولم يعودوا بعدها لحارتنا قط. وبالرغم من ذلك لم يحصل على تقديراً من أهل الحارة وظلت نظرتهم له على أنه مجرد متسول متشرد لا يستحق أن يتساوى بهم، وأنه من العبث أن يشكره السادة الذين يمنوا عليه ببقايا طعامهم. أما ما حدث بعد ذلك فتعددت فيه الأقاويل، البعض رأى أن ما حدث كان نتيجة طبيعية لقوة غاشمة لم تجد لها رادع، والبعض الأخر تلمس الأعذار لعنتر مؤكدا أنه كان مضطراً فيما فعله، أما فقراء الحارة فقد أخذوا صفه بدون تردد، بل وعدوه بطلاً يحتذى به.

فوجئ الناس من أهل الحارة ذات ظهيرة صيفية حاره بعنتر يقتحم قهوة المعلم حموده حاملاً هراوته ممسكاً بأحد زبائن المقهى جاراً أياه لخارج المقهى، دوى صوت عنتر عالياً وهو يصيح قائلاً بأن هذا الرجل هو أباه الذى ألقاه ليتلطم بين الشوارع والحارات بعد أن وضع بذرته

بأحدى الخادمات الموسميات، قال عنتر أن الخادمة أصابها الخـوف ولم تجرؤ على العودة لبلدها في الجنوب وهى تحمل طفلاً على يـديها، قـال بأن هذا الرجل رفض أن يتزوجها وتهرب منها ولم تجرؤ الخادمة علـى اللجوء للحكومة لأنها لم تكن تحمل أى أوراق هوية تثبت أن لها وجوداً من الأساس، كانت في نظر الحكومة شبحاً أخـر يهـيم بـين الطرقـات، بينما كان هذا الرجل المدعو شداد من الأعيان أصحاب الأوراق الرسميـة، دارت كالمجاذيب تبحث عن من ينجدها ويقف بجانبها فركلتها الأقدام وداستها الأحذية اللامعة. حملت رضيعها علـى كفيهـا علـها تـستجلب الرحمة من قلوبهم المتحجرة، فقابلـها شـداد بجنيهاتـه الذهبيـة الـتي خطف بريقها أبـصارهم فأصبحوا صـمٌ بكـمٌ كالـدمى. لم تجـد الخادمـة المسكينة أمامها سوى أن تترك رضيعها أمام عتبـه بيـت شـداد وتفـر إلى بلدها، وهكـذا وجـد عـنتر طريقـة إلى الخرابـة الـتي أسـتقبلته كلابهـا بالتردد في البداية، لابد أن دموع الرضيع الذى لم يكن يملك لنفسة ضراً ولا نفعاً وقتها قد أثرت في أحدهم فتركوا عنتر ليحيا بينهم في سلام.

أنكر شداد نسب عنتر إليه البداية، وبعد بضع ركلات وصفعات مـن عنتر أخرج شداد جنيهاته الذهبية وعرضها لمن ينقذه من أهل الحارة من بطش عنتر، تلألأت الجنيهـات الذهبيـة تحـت ضـوء الـشمس وأغـرت الطامعين منهم، ولكن يقسم البعض أن الـشرر المتطـاير مـن عينـى عـنتر

يومها غطى على بريق جنيهات شداد، دار عنتر بنظرة بينهم عله يجد من يتحداه، ولكن كان الجميع مطأطئوا الرؤوس في ذل وخنوع أمام عضلات عنتر التي تضخمت فجأة فبدا لهم كوحش ينتظر إلتهام فريسة شاردة عن القطيع. ولأول مره يدرك شداد أن هناك ما هو أقوى تأثيراً من جنيهاته الذهبية على أهل الحارة، لأول مره يشتم الخوف الصادر منهم فتضاعف خوفه من عنتر ملايين المرات وإنهار معترفاً بصحة مزاعم عنتر. سحبه عنتر من قذاله خارجا من الحارة وعاد بعدها يحمل أوراقه في يده، أوراق هويته التي أقر فيها شداد بنسب عنتر إليه وأصبح لعنتر كيان معترف به أمام الحكومة ولم يعد شبحاً مثلنا. أصبح له أسماً كاملاً وهوية، وليومنا هذا لم يعرف أهل الحارة كيف عرف عنتر أن شداد هو والده.

توالت الأيام وعنتر يسير بين الناس مرفوع الرأس فقد أصبح الأن معروف النسب والهوية، إختفى شداد من الحارة بعد ما تعرض له من مهانة وذل على يد عنتر، ولكن عنتر لم يبالى بشداد، كان كل ما يريده منه هو تلك الأوراق التي تثبت نسبه وتجعله شخصاً ما ذو أصل على العكس من باقى رجال الحارة.

فوجئ أهل الحارة ذات صباح ندى تعالت فيه زقزقة طيور الصباح وتفتحت فيه زهور الربيع بألوانها البديعة بمالك وقد إنتقل للمنزل

المقابل لخرابة عنتر، كان لمالك إبنة رائعة الجمـال، يتفتـق ثغرهـا عـن إبتسامة تنير الكون بأكمله، وإن تهادت في سيرها تساقطت السماء بكـل ما فيها من غيوم ومطر وشموس. لم يكن مالك غريبـا عـن الحـارة، ففـي واقع الأمر كان والده أحد مؤسسيها، ولد مالك بحارتنا وكـان والـده مـن الأغنياء فكان أبنه من أصحاب أوراق الرسمية، وبعد وفـاه والـده فـوجئ أهل الحارة بمالك يحزم متاعه وكل ما يملـك ويـسافر مـع أسـرته لأحـد دول الخليج ليعمل بأحد الوظائف هناك بعد أن تحصل بطريقة مـا علـى عقد عمل بأحدى شركات النفط، جمع مالك في غربته من المال مـا يكفيـه ليحيا كأحد الملوك لباقى عمره. فلم يكن حدثاً غريبـاً أن يتهافـت رجـال الحارة على عبله إبنته طالبين الزواج منها، منهم من صرعه جمال عبله ومنهم من تهافت على أموال أبيها. ولكن أباها رفضهم جميعاً، كان على ما يبدو يرغب بمستقبل أفضل لإبنته عن ما ستحـصل عليـه إن تزوجـت بأحد رجال الحارة.

كان لعبله أخاً يدعى عمرو حباه الله بجسد ضخم منتفخ العضلات، لم تذق يداه شقاء عملاً أو مصاعب وظيفة، نصف متعلم لم يبلغ مـن التعقـل مداه. رأه أهل الحارة يسير فيها مـع شـداد ذات يومـاً عـاد شـداد بعـده ليسكن في الحارة مره أخرى. وعلى مقهى حمـوده صـاح عمـرو في الخلـق بأعلى صوته أن شداداً هو في الأصـل عمـه أخـى أبيـه، وأن مـن يتعـرض

لشداد لكأنما تعرض لـه شخصياً. توقـع أهـل الحـارة مـن عـنتر الـشر المستطير، فقد كانت رسالة عمرو واضحة وقوية، ولكن الغريب أن عـنتر لم يبالى ولم يعترض على إستفزازات عمرو، ظل كما هو منكب على عمله في ورشة الحداده غير عابئ بما يدور حوله. جمع عمرو من رجال الحارة عددا لا يستهان به، أصبح رجل الحارة الأول ومعلمها الأوحد. إنطلق في بضع غارات على الحارات المجاورة فأعلى شأن حارتنـا لعنـان الـسماء، وقل عدد المتقدمين لخطبة عبله خوفاً من بأس أخيها وشدته.

ولحارتنـا عـادة لا تنقطـع أو يبـدلها الزمـان في ترديـد الأقاويـل والأحاديث، ومن مكان ما ترددت الهمسات التي تؤكـد أن عـنتر صـريع هوى عبله، وأنهما يتلاقيان سراً ويتبادلان أحاديـث الهـوى والعـشق في مأمن من بطش عمرو وفى غفله عن مالك. وكما هو متوقع وصـل أثـر تلـك الإقاويل والهمسات لعمرو أخى عبله، إستشاط عمرو غـضباً علـى سمعـة أخته ولكنه لم يواجه عنتر بما سمع، فعلى الرغم من أن لعمـرو بطانتـه الخاصة من عتاه رجال الحارة إلا أن عنتر لم يكن بالخصم الذى يـستهان به، وعلى الرغم من قوه مالك إلا أنه كان يعرف أن عنتر هو أبن الـشارع قبل أى شيء فأثر أن يتكـتم علـى تلـك الأخبـار وأصـدر أوامـره لرجالـه بمعاقبه مردديها فقط.

وكأن عنتر أراد أن يؤكد شكوك أهل الحـارة فقـد توجـه بنفـسه ذات

مساء أنذرت سمائه المظلمه التي إختفى منها القمر والنجوم وكل ما يبث الحياه في المخلوقات لبيت مالك ليطلب يد عبله للزواج. وكما هو متوقع إستحقر مالك عنتر بسره ولكنه أمام جسد عنتر الضخم ووجهه الذى تركت فيه قسوه الزمان وندوب الأيام علاماتها لم يجرؤ على الرفض المباشر الصريح، فتحدث إليه في لهجه خانعة منافقة طالباً منه مهراً كان يعلم أن لا أحد في الحارة بأسرها قادراً على سداده.

إختفى عنتر من حارتنا بعد تلك الليله وأصبحت خرابته مأوى لرجال عمرو يتسكعون بها ويبيتون بعشته لياليهم. كان أهل الحارة يشتمون رائحة الحشيش الصادرة من الخرابة ويسمعون ضحكات بنات الليل تهز حارتناً هزاً فلا يجرئون على الإعتراض أو الشكوى، فقد كان هؤلاء الرجال تحت حماية عمرو وكان أهل الحارة يخشون من بطش مالك الذى قام بشراء معظم دكاكين حارتنا فأصبح المتحكم الأوحد في طعامهم وقوتهم. وهكذا عرف أهل حارتنا أن الجوع وحش كاسر يغلب قوه عنتر ونقود شداد الذهبية، فصبروا وصابروا على حماقات عمرو ونزواته.

ولم يدرى أهل الحارة ذات يوم إلا بعنتر يقتحم مدخل الحارة عابراً الشجرة العتيقة يرفل في الثياب الغالية متضوعاً بأغلى العطور قاصداً بيت مالك. جمع عنتر في غيبته من الأموال ما يكفى لحجب ضوء

الشمس، قدم لمالك ما يزيد عما طلبه لمهر عبله عن طيب خاطر ليفوز بيد حبيبته. وكما لم يعرف أحد من الحارة كيف علم عنتر بنسبه لشداد لم يعرفوا كيف جمع عنتر كل تلك الأموال. راوغه مالك كما فعل عندما تقدم عنتر لخطبة عبله، ولكن عنتر كشف زيفه تلك المره وكشر عن أنيابه وظهرت نذائر غضبته.

لم يُرضِ عمرو أن عنتر جاء بالمهر المطلوب وأستحق عبله، وهكذا شهدت حارتنا معركة حامية الوطيس بين عنتر وعمرو، تخلى عنتر فيها عن ملابسة النظيفة وعطوره وإسترد روحه القديمة، عادت كلاب عنتر التي تربى وسطها أضخم وأشرس مما كانت من قبل، وقفت وراء عنتر بينما وقف رجال عمرو ورائه، زامت كلاب عنتر وبدا وكأنها قد تلبستها أرواح أجدادها القدامى وزادت شراستها عشرات المرات. إحتمى أهل الحارة ببيوتهم وفتحوا الشبابيك والمشربيات القديمة ليروى كل منهم فضوله.

بدت الحارة يومها وكأنها أحدى الساحات الرومانية القديمة وقد إنبعثت من قلب التاريخ مره أخرى، وقف عنتر بصدره العارى كأحد أسود ملوك الرومان متأهباً لقتال عمرو، تراجع رجال عمرو وقد إنكمشوا خوفاً وملئوا رعباً من كلاب عنتر التي كشرت عن أنيابها. تلاحم الجسدان في معركة دامية وتطاير التراب من أرض الحارة ليغطى

الأثنان، دارت قلوب أهل الحارة بين من يتمنى فوز عمرو بينما ناصرت قلوب الأغلبيه منهم عنتر. انقشعت غمامه التراب عن عنتر واقفاً كأحد الألهه الأغريقية بينما إنطرح عمرو أرضاً وقد سالت الدماء من عده مواضع في جسده بينما لم يصب عنتر بخدش يذكر، تأكدت سيطرة عنتر مرة أخرى لرجال الحارة وأهلها وأندفع الجميع مهللين ومباركين لفوزه، حتى رجال عمرو تفرقت صفوفهم وأندفعوا مهللين لعنتر رافعينه على أكتافهم، مغدقين عليه لقب سيد الرجال.

أرسل عنتر أحدهم ليأتي بالمأذون ليعقد قرانه على عبله بموافقة أبيها أو رغماً عنه. نظرت الكلاب لعنتر نظرة أخيرة، بادلهم النظرات في حب ومودة. كان الأمر وكأنهم يتحادثون بلغة خاصة فيما بينهم، صمت رجال الحارة ونسائها وتطلعوا لكلاب عنتر في رهبة، أقبل المأذون وأختفت الكلاب فجأة ولم تعد للحارة ثانية إلى يومنا هذا.

صعد عنتر إلى شقة عبله وأتى بها وبأبيها مالك، وافق مالك على زواج أبنته قسراً وهو يتطلع لجسد عمرو ولده وهو يفيق من إغمائته نافضاً التراب من على ملابسة منكسراً لا يجرؤ على رفع عينيه في وجه أهل الحارة. أصر عنتر على أن يكون عمرو أحد الشهود على زواجه من عبله. تم زواج عنتر من عبله وسط فرحة رجال الحارة وزغاريد نسائها، كان جلياً للجميع سعادة عبله بزواجها أخيراً من عنتر.

كان لعنتر رغبة أخيرة غريبة بعض الشيء، أمر عبله بالعودة للإقامة في بيت أبيتها إلى أن يأخذها لمنزله. وبالفعل عادت عبله تلك الليه للإقامة بمنزل مالك وهى لا تدرى لذلك سبباً.

تدفقت أموال عنتر لتحيى الخرابة، كانت معجزة أخيرة لعنتر، أنفق ما جمعه في غربته ليشيد عمارة مكان الخرابة التي أوته وحمته أيام شقائة، كما قام بشراء ورشة الحدادة من ورثه المعلم صاحبها. وبعد أن فرغ من بناء العمارة وقام بتأثيثها جاء بعبله ليتمم طقوس زواجه منها، جائت عبله مع أخيها عمرو الذى سعى من يومها ليصبح صديق عنتر المقرب.

وعلى الرغم من قصة حب عنتر لعبله التي ألهمت أهل الحارة وصعدوا بها عنان السماء لم يمض ستة أشهر على زواج عنتر من عبله إلا وفوجئ أهل الحارة بزواج عنتر من أخرى، وبالرغم من هذا فلم تتزعزع مهابته من أهل الحارة وبارك له الجميع على زواجه للمره الثانية. ومنذ أن أصبح عنتر معلماً وصاحب ورشة حدادة وقد بدأت جلسته على باب الورشة تصبح طابعاً وعادة لا يغيرهما مع مرور الزمن وتغير الأيام. ولم يجرؤ غريب من يومها على السكن بحارتنا قبل الحصول على موافقة عنتر ورضاه.

ملامح

هل تؤمن بإمكانيه رؤيه الروح؟ قبل أن تجيب على هذا السؤال يجب أن اوضح نقطة هامه، أنا لا أتحدث عن الروح مجرده أو منفصله عن الجسد.. ما أقصده هو هل تؤمن بامكانيه رؤيه الروح ممتزجه بالجسد؟ هل تستطيع أن تنظر لشخص ما وترى روحه بعينيك؟ أراك تهز رأسك أن لا، بالطبع يمكن أن أتفهم موقفك فما أتحدث عنه هو الجنون بعينه، إنك حين تنكر احتماليه حدوث مثل هذا الأمر تثبت انك إنسان عاقل.

حسناً سيدى يمكنك أن تلصق بى تهمه الجنون وأنت مطمئن البال.. ربما أكون مجنوناً بالفعل! أو ربما أنا شخص تعس الحظ بشكل لا يصدق.. على أى حال فقد أمنت بالإحتمال الأول لفترة طويلة إلى أن حدث ما جعلنى أتأكد أن الاحتمال الثانِ ينطبق علىّ تماماً.. أراك بدأت تتململ من حديثى، حسناً، سأدخل في صلب الموضوع مباشرة.

أنا أستطيع أن أرى الروح وهي داخل الجسد.. أرى شبح إبتسامة يتراقص على وجهك، لا يهم سأكمل قصتى على أى حال.. بدأت هذه الظاهرة في الحدوث عندما كنت في الثامنة عشر من العمر.. لم أولد هكذا، ولدت طبيعياً مثلك تماماً، أرى الناس مثلما تراهم أنت بالضبط.. لكل شخص ملامح مميزة.. عينان وأنف وأذن وشعر يجتمعوا سوياً ليشكلوا شخصاً بعينهِ.. وعندما بلغت الثامنة عشر من العمر بدأ الوضع يختلف قليلاً.. بدأت أرى الناس مشوهون، مسوخ إلى حد ما، لم يكن جميعهم مسوخ ولكن الغالبية كانت كذلك.

فى البداية لم أفهم ما يحدث لى وأنتابنى الفزع، قضيت أسابيع عديدة منعزل في المنزل أرفض الخروج، أخشى النزول إلى الشارع كى لا أرى الناس بوجوههم المفزعه، إكتفيت بوجوه عائلتى المشوهه.. لم يعرف والداى السبب، ربما أعتقدا أننى أمر بقصة حب فاشلة، فهذا أمر طبيعى لمن هو في مثل سنى.. آلحّا علىّ لمعرفة سبب إنعزالى إلى أن أخبرتهم بما أراه.. كان رأى أمى أن هذا عملاً سفلياً من جارتنا الحقود بقصد إيذائى، وظلت تقسم لأبى أن زوج صديقتها مر بما امر به بالضبط، وكيف أنه كان كلما نظر لزوجته رأى بقرة بدلاً منها، إلى أن ذهبا إلى أحد الشيوخ - الذى يفهم في مثل هذه الأمور- والذى أكد لهما بدوره أن هذا عملاً سفلياً وفك عنه السحر.. لقد رأيت صديقة أمى من

قبل وأستطيع أن أفهم لماذا كان يراها زوجها بهذا الشكل، لم يقل الرجل المسكين سوى الحقيقة فهي بالفعل تبدوا كبقرة لا أزيد أو أقل.. على أى حال دارت بى أمى على عدد لا بأس به من هؤلاء الشيوخ - الذين يفهمون في مثل هذه الأمور- ، أشنع وأقبح مجموعة مسوخ يمكن أن تراهم في حياتك.. بالطبع لم يتغير الوضع في شىء سوى أن جيوبهم امتلأت قليلاً بينما أخذ جيب أبى في الأنكماش.

بعد العديد من هذه المحاولات البائسه قرر أبى أن يصطحبنى لرؤية طبيب نفسى عله يجد عنده إجابه ما.. كان الطبيب قبيحاً بشكل لا يصدق، قال لأبى أنه يجب أن يرانى بشكل منتظم ليتمكن من تحديد مرضى بدقه.. وهكذا واظبت على متابعة الطبيب لفترة لا بأس بها إلى أن أدركت عدم جدواه، فهو لا يفهم ما يحدث لى ولم يستطيع أن يقدم أى حلول تذكر.. كنت قد أعتدت على وجوه الناس الجديدة نوعاً ما، وأشفقت على أبى وأمى من خوفهما علىّ فقررت أن أنقطع عن زياره الطبيب وأخبرتهما ذات يوم بأننى قد شفيت وبدأت أرى الناس بشكلهم الطبيعى المألوف.

بدأت أعود لممارسة حياتى تدريجياً، وظللت أقنع نفسى أن ما أراه ليس حقيقياً واننى أتوهم ما أرى.. إلى أن جاء اليوم الذى وضعت فيه اختى إبنتها الأولى.. عندما رأيت الطفلة الرضيعة لأول مره أخذتنى

المفاجأه.. فعندما وقع نظرى عليها لم أرى سوى طفلة طبيعية تماماً، بلا تشوهات من أى نوع، وجه في غاية البراءه، بينما ظل الجميع على نفس الدرجة من القبح.. هنا أدركت لأول مره أن المشكلة لا تكمن فيّ، بل هى خارجة عنى تماماً.

بعد فترة من مراقبة الاطفال بدأت أضع بعض القواعد.. لاحظت أن الطفل يولد طبيعياً تماماً، وتبدأ ملامحه في التغير مع مرورالوقت.. فمع تقدم الطفل في العمر تبدأ هذه التشوهات في الظهور.. وكانت هذه أولى القواعد.

وكما ذكرت من قبل فقد بدأت أعود لمارسة حياتى تدريجياً، وكرد فعل طبيعى لما حدث لى بدأت أتقرب إلى الله أكثر من ذى قبل.. أخذت أواظب على الصلاة في أوقاتها، منفرداً في البداية ثم بدأت أرتاد المسجد القريب من المنزل.. وهنا لاحظت أمراً آخر.. وجدت شيخ المسجد وقد اقتربت ملامحه من ملامح البشر الطبيعية إلى درجة كبيرة عندها بدأت أكوّن فكرة ما عما يحدث بالضبط.

بدأت أدرك أن ما أراه من قبح على وجوه الناس لهو جزءاً من روحهم ليس إلا.. فعندما رأيت الطفلة الرضيعة كانت تبدوا طبيعية تماماً لأنها لم تكن قد احتكت بالعالم بعد، وما زالت روحها نقيه لم تتلوث بأى شرور بعد.. أما شيخ المسجد فهو رجل على درجة من

الإيمان تجعله يتجنب الأثم ويسعى لرضاء ربه، ولكنة مع ذلك لم يسلم من شرور الدنيا فأخطأ في وقت ما وإكتست روحه بالقليل من القبح.. أما الدجالين الذين أخذتنى أمى لرؤيتهم فقد كانوا على درجة من القبح لم أراها على وجه بشرى من قبل، تلوثت أرواحهم بالكذب والنصب على الأبرياء فأصبحوا للشياطين- التي يتحدثون عنها – أقرب.. وبدأت أفهم قواعد اللعبة.. إكذب، إسرق، نافق، غش، إحسد.. تحصل على ندبه في روحك لا تنمحى، وبدأت أفهم أن ما أراه على وجوه الناس لهو في الواقع – وبرغم قبحه وبشاعته – جزءاً لا يتجزأ من أرواحهم.

كنت أرى مسوخاً يرفلون في أغلى الثياب ويتضوعون بأجمل أنواع العطور، يقودون سيارات فارهه ويسكنون في مجتمعات مغلقه هى أقرب ما تكون للجنه، ومع ذلك فقد جمعوا ملامح ألف شيطان وشيطان على وجوههم.. وبشراً اقتربت ملامحهم أشد الاقتراب للمسوخ يقتاتون على ما يجدونه في صفائح القمامه، يسكنون العشش الصفيح والخرائب، وتخرج منهم ألعن الروائح.. لا فارق بين الغنى والفقير، فالجميع مسوخاً بشكل أو بأخر وإن تدرجت ملامحهم في البشاعة والقبح.

صحيح أنك لا تستطيع التحليق قريباً من الشمس دون أن تحترق.. فبعد أن أقتربت للحقيقة تمنيت للرجوع لحالتى الأولى، أن أظن في نفسى الجنون لهو خير ألف مره من رؤية الحقيقة العاريه بدون أقنعه.

بدأت أبحث عن روح نقيه وسط ملايين الأرواح المشوهه.. تمنيت أن أرى روحاً واحده على الأقل تعيد إيمانى في البشر، في الإنسانية.. ومع مرور الوقت تعلمت أن وجود هذه الروح لهو المستحيل الرابع.. لا فارق بين المجرم الذى قد يزهق روحاً وبين الطبيب الذى ينقذها سوى في إختلاف الأخطاء والشرور ليس إلا.. بدأت أكتئب لما أراه وبدأت أفقد الأمل في البشر وأتحاشاهم.. إلى أن جاء ذلك اليوم المشئوم.. ولمزيد من الدقه فأنا أتحدث عن اليوم بالتحديد.

* * * * *

استيقظت بعد الظهيرة بقليل، تناولت إفطارى وارتديت ملابسى وإنطلقت أجوب الشوارع على غير هدى كعادتى في الأونه الأخيرة.. أنظر إلى وجوه الناس، أتأمل، أتعلم، أنظر إلى وجه عامل النظافة العجوز الذى يجمع القمامة من الشوارع.. أُحاول أن أُخمن ماذا فعل في حياته لينتهى بهذا الوجه القبيح! تعبت من السير بعد فتره فدخلت أول مقهى قابلنى.. درت بعينى في المكان باحثاً عن مقعد شاغر، وقع نظرى على رجل يجلس وحيداً في ركن المقهى، ولدهشتى الشديدة كان يبدوا طبيعياً تماماً، لا تشوهات من أى نوع، مجرد رجل عادى في أواخرالعقد الرابع من عمره.. أخذتنى المفاجأة وتوجهت بدون وعى منى لأجلس على المقعد المقابل له على الطاوله.. فكرت لحظتها أننى أخيراً

عثرت على ضالتى المنشوده، الروح النقيه التي لم تتلوث.. ما زال هناك أمل في الأنسانية.

توجهت ناحيته وألقيت السلام فرده على.. أشرت إلى المقعد المقابل له وسألته إن كان شاغراً فأشار لى أن تفضل.. أخذت أختلس النظر إليه فوجدته هادئاً، باسماً، لا يكاد يحول نظره عنى.. جاء النادل وسألنى عما أريد فطلبت كوباً من القهوة، بعد أن إبتعد النادل لإحضار القهوة فوجئت بالرجل الجالس أمامى يميل نحوى قليلاً قائلاً:

- القهوجى ده بيسرق من إيراد القهوة.

استغربت فعلته قليلاً وسألته قائلاً:

- وحضرتك عرفت أزاى؟

- خدت بالى منه مره.

سكت قليلاً ليسحب نفساً من الشيشه التي أمامه، ثم أردف قائلاً:

- وبعدين بيتهيألى انك شايف وشه شكله إيه؟

توترت قليلاً وسألته في حذر:

- مش فاهم حضرتك تقصد إيه؟

ابتسم قائلاً:

- إزاى بقا؟ بص حواليك على الناس الى في القهوه شكلها ايه،

وشوف أنا شكلى ايه.

أدركت على الفور أنه يعرف ما يتحدث عنه بالضبط، وأنه لا فائده من اللف والدوران فقررت أن أكون صريحاً معه وقلت:

- أنت عرفت أزاى؟

- عشان أنا زيك، بشوف اللى أنت بتشوفه بالظبط.

- إزاى؟

- من أربع سنين حصلتلى حادثة عربية، والدكاتره أنقذونى من الموت على أخر لحظه، ومن ساعتها وأنا بشوف الناس زيك كده.

صمت قليلاً وسحب نفساً من الشيشه وأكمل قائلاً:

- أنا قابلت واحد زيى وزيك كده من سنتين.. عشان كده عرفتك أول ما شوفتك، اللى زينا مش بيبان على وشهم حاجة مهما عملوا، عشان كده أنت شايفنى شكلى عادى من غير تشوهات وأنا كمان شايفك عادى.

قلت ببطء وأنا مازلت أُحاول إستيعاب ما قاله للتو:

- يعنى مفيش أمل؟

إستغرب قائلاً:

- في أيه بالظبط؟

- في أني ألاقى حد روحه نضيفه.

ضحك قائلاً:

- متتعبش نفسك، دورت قبلك كتير وملقتش.

صمت قليلاً ثم أضاف قائلاً:

- تعرف أنا مره شفت بقال شكله بشع، وعرفت بعدها انه بيغش الزباين في البضاعة اللى بيشتروها، جه عليه رمضان اللى فات وبطل يغش الناس، وبدأ وشه يحلو شويه شويه مع الوقت.. أفتكرت أنه تاب ورجع لربنا، رمضان خلص من هنا وصاحبك ده رجع أوحش من الأول.

سألته مستغرباً:

- هو الواحد ممكن ملامحه تتغير للأحسن؟

- أمال أيه، الواحد لما بيعمل شر ملامحه بتتغير للأوحش، ولما بيعمل خير ملامحه بترجع لحالتها الطبيعية.

صدمتنى هذه المعلومة التي كنت أجهلها.. تذكرت أرواح الناس المشوهه. تذكرت كيف كنت أبحث عن روحاً واحده نقيه ولم أجدها.. أدركت لحظتها أننى كنت مجرد غر سانج.. أبحث عن سراب لا وجود له في الحقيقة.. كنت أظن من قبل أنه لا يوجد أمل في البشر، والأن فقط تأكدت من ذلك.

أستأذنت منه وقمت لأدفع حسابى، وغادرت القهوة في هدوء.

* * * * *

إلى هنا يا سيدى تنتهى قصتى.. لعلك تفهم الأن سبب رغبتى في دخول مصحتك النفسية.. فأنا أرفض الإختلاط بهذا العالم المشوه، القبيح.. ومن يدرى ربما أقرر الخروج لمواجهته يوماً ما.

الشاهد

جلس العجوز في العراء مستنداً على وساده قديمة من القطن بجوار غرفته المبنيه من الطوب الأحمر. تهدم الطوب في بعض مواضع منها وظهرت فجوات صغيرة تطل على أثاث الغرفة المتواضع الذى لا يتعدى سرير قديم متهالك علا الصدأ قوائمه المعدنية، وتلفاز صغير الحجم مكسو بطبقات من التراب تشى بأن صاحبه لا يستعمله على الإطلاق، وأريكة خشبية إستحال لون قماشها المزق في مواضع كثيره حتى بات من الصعب تمييز لونه الأصلى.

عم صمت ثقيل أرجاء المكان، لا يقطعه سوى صوت قرقرة الجوزة التي أخذ العجوز يسحب منها أنفاساً متقطعة كل حين وأخر.. كان يجلس بجوار راديو صغير الحجم يستمع للأغانى القديمة التي تحملها له موجاته عبر الأثير، وكل حين وأخر يهز رأسه في إستمتاع دون وعى منه، بينما تراصت من حوله القبور وإرتفعت شواهدها تحمل أسماء

قاطنيها وتوّزع ضوء القمر على الأرض الترابية الدافئة.

كانت غرفة العجوز مبنيه على أطراف المقابر، بعيده عن العمران وضوضائه، ولم تكن ثمه أماكن مسكونه بالأحياء من حوله.. لم يكن هناك سوى القبور بصمتها الذى آلفه واعتاد عليه، كما اعتاد كل حين وأخر على سماع نعيق بومة ما، أو عواء كلباً ضالً.

رأى أشباحهم من بعيد تتهادى تحت القمر المكتمل.. ضيّق عينيه اللتان تَعَوَد منهما على رؤيه غامضة مبهمة بفعل الزمن ليرى بشكل أوضح، لم يكن يخشى العفاريت أو أشباح الموتى فهؤلاء كفوا عن زيارته منذ زمن وآلفوه كما آلفهم.. تأكدت له الرؤية مع إقترابهم وأضحى المشهد واضحاً. كانوا أربعة، شابٌ وثلاثة فتيات.

قام مُسرعاً ووضع الجوزة داخل الغرفة، ثم مد يده لمؤشر الراديو ليعيد ضبطه على إذاعة القرأن الكريم، ووقف بإنتظارهم.

دخلوا دائرة ضوء الكلوب الساهر فرأى الشاب يحمل لفافه صغيرة الحجم يحيطها بيديه.. لم يكن في حاجه للتخمين ليعرف محتوى اللفافه.. السنوات العشرين التي قضاها يعمل لحاداً وحارساً للقبور كانت قد مرسته فأصبح يرى الميت بروحه قبل أن يراه بنظره.

تقدم الشاب ناحيته، كان سنه لا يتعدى الخامسة والعشرين، وكذلك كن مرافقاته. بدأ الشاب الحديث قائلاً:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- حضرتك التُرَبى؟

- إن شاء الله يا أبنى، خير؟

مد يده باللفافه التي كان يحملها قائلاً:

- دى جثة طفل صغير عايزين ندفنه.

على الفور إنهمرت الدموع من أعين الفتيات وخرجت أصوات نحيبهم على إستحياء، بينما ظلت أحدهم على صمتها وجمودها، حَمَلَ وجهها ملامح ثابتة بدت وكأنها لا تتغير، ملامح تُظهر الخواء الذى تشعر به في روحها وقد طفح على وجهها فشكّله على شكل واحد لا يتغير.. أخبرته غريزته أن تلك الفتاه هى أم المتوفى.

واساهم بكلمات إعتاد على ترديدها حتى أصبحت لا تعنى له شيئاً، ثم وجه حديثه للشاب قائلاً:

- معاكوا تصريح دفن يا أبنى؟

ظهر التردد على وجه الشاب قبل أن يضع يده في جيب سرواله ويخرج حفنه من النقود ناوله إياها قائلاً:

- ده لسه مولود النهارده يا حاج واتولد ميت، والله العظيم اتولد

ميت. ملحقناش نعمل أى حاجه فجبناه وجينا على هنا على طول.

نظر للشاب في ثبات لثوان، شعر بالشفقه عليه عندما لمح إرتجافات الخوف تغزو جسده.. مدت إحدى الفتيات الباكيات – التي رجح أنها خطيبته – ذراعها تتمسك بالشاب الذى حار عندما رأى جمود العجوز ونظراته التي تحاول سبر أغوار روحه.. دار بنظره ليستقر على الأم التي لا زالت على جمودها، لا يصدر عنها صوتاً، فكأنها إحدى تلك المقابر الخاوية الصامتة.. مد العجوز يده وقبض على النقود من يد الشاب واستودعها جيب جلبابه، قبل أن يقول:

– البقيه في حياتكم جميعاً، ربنا يعوضكم خير. أنت أبوه؟

– لأ.

حرفان حملا في طياتهما القصة كاملة.. تطلع العجوز للأم الصامته للحظات.. لم يكنّ لها من مشاعر سوى الشفقة البحته، ربما لصغر سنها، وربما لأن سنوات عمره التي تعدت الستون عاماً علمته أن لا يحكم على البشر من أخطائهم وهفواتهم.. أدار نظره ليستقر على الشاب سائلاً:

– غَسِلتوه؟

– أه.

دخل العجوز غرفته وخرج يحمل معوله على كتفه.. سار وساروا

ورائه يتبعونه، يلاحقهم عواء كلب ضال عـلا في الأرجـاء فجـأة لـدقائق قبل أن يسود الصمت مرة أخرى.

كان يسمع أصوات نحيبهم الصامت، رق قلبه لحال الفتاه على الرغم من أنه لم يعد يتأثر مع مرور الزمن بأحزان أهل المتوفى، شيئاً ما غامضاً بها يذكره بتلك السيدة التي إعتـاد أن يراهـا في المقـابر، ربمـا لتـشابه ظروفهما أو لتقارب ملامح وجهيهمـا.. جائتـه الأخـرى وحـدها تحـت جنح الليل متستره بظلامه، طلبت منه دفن طفلها المتوفى ولم يكن معهـا تصريح لدفنه هى الأخرى.. رجته أن يسترها ويدارى فضيحتها، وأمـام النقود التي أخرجتها من حقيبه يدها لم يرفض.. عشرون عاماً مروا على ذلك اليوم ولا يزال يراها تأتى لزياره قبر وليدها.. دفنت غيره من الأهل والأحبـاب وأبـيض شـعر رأسـها، ولكنهـا كانـت تمـر علـى قبـورهم في زياراتها مر الكرام، وتجلـس بالـساعات بجـوار قـبر وليـدها تناجيـه، تطلب منه الصفح والمغفره، تحدثه في شئون حياتهـا، تـضاحكه وتبكيـه إلى أن تستدير الشمس عائده لمستقرها، فتقفل هى الأخرى عائده لبيتهـا بعد أن تعده بزياره أخرى قريبه قبل أن ترحل.

وقف أمام أحد المقابر وبدأ الحفر، ومع كل ضربه مـن معولـه يتعـالى نحيبهم أكثر وأكثر، بينما إلتصقت الفتاه الـتي رجـح أنهـا ربمـا تكـون أخت الأم بخطيبها تلتمس فيه الحماية والأمان، تطالع وجه الصغير من

وسط دموعها فتتزايد لتنهمر أمطاراً.

توقف عن الحفر ومد يده في صمت يطلب الصغير من حضن الشاب، ناوله إياه الشاب في صمت وإستسلام. إندفعت خطيبته تتمسك بالجسد الصغير البارد الخالى من الحياة، خرجت كلماتها من وسط نحيبها متقطعه تسأل الأم إن كانت تريد رؤية وليدها مرة أخيره، تساقطت دمعتان هاربتان من عين الأم وهزت رأسها بالرفض.. تسابقوا في احتضان الأم التي لم تتغير ملامحها قيد أنمله وظلت على جمودها.. كان العجوز يعلم أن هذه لن تكون زيارتها الأخيره للمقابر.

طلب العجوز من الشاب أن يتبعه داخل المقبرة ليضئ له الطريق.. وقف أمام باب المقبرة يتلو سورة الفاتحه ويستأذن أهلها في الدخول.. دخل العجوز يتبعه الشاب بينما تجمعت الفتيات حول الأم يحتضنوها.. دخل العجوز على ضوء المصباح الذى يحمله الشاب يتلمس طريقه داخل المقبرة ويردد قصار السور.. كان يرى إمتقاع وجه الشاب وشحوبه أمام مرأى الأكفان الصغيرة المتراصة بالمقبرة.. كان العجوز قد قام بلف الجسد الصغير في أحد أكفان الصدقة التي يتبرع بها أهل الخير، وضعه برفق في أحد جوانب المقبرة وقام بتلاوة بضع أيات من القرآن الكريم، بدأ ضوء المصباح الذى يحمله الشاب في التراقص مع إرتجافة جسد الشاب التي لم يعد يستطيع السيطرة عليها فتناول منه

المصباح مشيراً له بالخروج، سار الشاب أمامه وخرجا معاً ليجدا الفتيات على نفس حالهم.

قام العجوز بإغلاق فتحه المقبرة وأهال عليها التراب مره أخرى، ثم قام بإلقاء بضع قطرات من الماء عليها وهو لا يزال يـردد مـا يحفظـه مـن القرآن الكريم.. قاموا جميعاً بقراءه الفاتحة ثم نفحه الشاب مبلغـاً أخـر من المال قبل أن يستديروا جميعاً عائدين من حيـث أتـوا.. ودعـه الـشاب عندما وصلوا لحجرته قبل أن يغادروه جميعاً.. وقف العجـوز يتأملـهم، رأى الأم وهى تجرجر قدماها في تثاقل الموتى، تابعها بعينيه ومرافقيها إلى أن اختفوا من مجال نظره وفرد عليهم الليل جناحه.. إستدار العجوز ليدخل غرفته ويلقى بجسده المكدود على سريره، وقبـل أن يأسـره النـوم سمعهم كما إعتاد في كل ليله يأتيهم فيها زائر جديد.. سمع أصوات بكاء أطفال خافته تتردد من بعيد.

أشباح الكوبري

داعبت نسمات الهواء البارده وجهى وأنا أعبر كوبرى الخامس عشر من مايو متجهاً للزمالك. بحثت عنها بنظرى، لم تكن تجلس في مكانها المعتاد، لا تزال علامات مقعدها محفوره على جانب الكوبرى فوق رصيف المشاة، حتى علامات المنضدة الخشبية حفرت أثار وجودها القديم على الطريق وكأنها تأبى أن تصبح هى وصاحبتها في طي النسيان أو أن يكونا مجرد ذكرى عابره لحلم قديم.

وقفت أعلى تلك السلالم التي تصل الكوبرى بشارع النيل.. كانت درجات السلم تنقسم لقسمين يربط بينهما ممراً صغيراً من درجة واحده. حاولت أن أنظر بقاياهم علنى ألمح أحدهم ولكن لم أجد سوى درجات السلم المتأكله وقد أختلط فيها الأسمنت بالمعدن وتراب أحذية الماره تحدق في وجهى في صمت صارخ. ترائت أشباحهم لعينى بجلساتهم البائسة التي لم تتغير مع مرور الوقت وخطوات صاعدى السلم أو نازليه.

عدت لأقف على سور الكوبرى في المكان الذى إعتادت الجلـوس فيـه وإستندت بكوعى على حافته. كانت تلك العوامة لا تزال تقف في مكانـها وكأنـها تتحدى النيل وتهزأ من أمواجه، أغلقـت أبوابهـا علـى أسـرارها وقد علا الصدأ قفل البوابة الخارجى. تراكمت الأتربة على الممـر الواصـل بين العوامة والبوابة الحديدية وأختلطت ببقايا أوراق الـشجر المتـساقطة من الشجرة العجوز. وحول البوابة تقدمت البطـة الأم تـشق ميـاه النيـل تاركه خلفها خطان في مياه النهر، ينكسران وينقسمان لخيوط أصغر كلما أصطدما بالبطات الأصغر سناً وهم يحاولوا بعزم اللحاق بركاب أمهم.

كانوا أربعة وكانت هى خامستهم أما هـو فقـد كـان الوافـد الجديـد. السادس والمتمم وأخر أعضاء الحلم القديم.. ترى هل كانوا موجودون حقاً أم كانوا كيانات وهمية صنعها عقلى ونسج حولها بقايا ذكريات خيالية! الحقيقة الوحيدة المؤكده هـى أنـى إعتـدت أن أمـر علـى هـذه الـدرجات صعوداً وهبوطاً كل يوم فيما مضى، كم من السنون مرت على وأنا أعمل في تلك الشركة بالزمالك قبل أن أغادرها لـشركة أخـرى. حاولـت أن أتـذكر السبب الذى أعادنى لهنا مره أخرى فلم تسعفنى ذاكرتى، تراكمت علـىّ سنوات العمر حتى تغضن جلدى وتأكلت ذاكرتى وأصـبح عكـازى رفيـق دربى الأوحد بعدما تساقط الأخرون من حولى واحداً تلو الأخر.

كان أولهم ذلك الرجل العجوز، يجلس بجـوار درجـات الـسلم أمـام

باب العوامة المطله على ضفة النيل.. يحتمى به من لفحات أشعة الشمس.. تكلل رأسه عمامة صعيدية تشى دقة لفتها على رأسه بأصوله التي لا يزل متشبثاً بها حتى بعد أن نزح للمدينة، لوحت الشمس بشرته وأعطته ذلك اللون الأسمر المحبب للنفس.. يجلس على بقايا كرسى معدنى متكسر وقد وضع فوقه قطعه من الورق المقوى لتقيه الأطراف المعدنية المدببه.

إفترشت بضاعته الأرض أمامه متراصة على قطعة من الخشب لا تتجاوز المتر طولاً وعرضاً، ألوان وأشكال متعدده من الولاعات وعلب السجائر.. لم أره يتحدث مع أى شخص قط.. فقط يجلس هكذا يتأمل الماره في صمت وبين الحين والأخر يشعل أحد سجائره نافثاً دخانها في الهواء المحيط به فيمتلأ الهواء بالدخان الرمادى للحظات وسرعان ما يتبدد ويختفي. يأخذ أنفاساً طويلة نسبياً من سيجارته وكأنما يخرج فيها همومه وما يجيش بصدره، يسحب دخانها لصدره بعنف ويحتفظ به لثوان قبل أن يزفره للخارج مره أخرى. كنت أشعر به يكاد يلتهم السجائر إلتهاماً. وكلما إنفتح باب العوامة من ورائه كان يقف إحتراماً لقاطنها وهو ينظر للأرض بعينيه رافعاً يده بالتحية كعلامة إحترام وتقدير، يظل واقفاً هكذا إلى أن يختفى صاحب العوامة من أمام ناظره فيعود مره أخرى لجلسته المعتاده.

وكان ثانيهم عجوزاً هو الأخر.. يفترش درجات السلم السفلية جالساً على احدهم وأمامه قطعة من القماش يضع عليها بضاعته.. دائماً يرتدى نفس الجلباب الفلاحى وتكلل رأسه طاقيه صغيرة من تلك التي تنتشر في الريف المصرى، بعينه اليسرى شيئاً ما يحجب جزءاً من سوادها. أما بضاعته فكانت تتغير مع مرور الوقت، يحاول إستجلاب رزقه بكل ما يمكن أن يباع، فتاره هو يبيع علب السجائر، وتاره أخرى ماكينات الحلاقة، وتاره هى المقصات وبعض الأدوات المنزليه الصغيرة.. ملامحه توحى ببقايا عز قديم أتى عليه الزمن فلم يترك له من حطام الدنيا سوى تلك البضائع القليله يبيعها لينفق منها على ما يبدو على متطلبات حياته اليومية.. كنت أرى الشعر الأبيض وهو يغزو رأسه يوماً بعد الأخر ويزداد إنطفاء لون عينه اليسرى الأسود مع مرور الوقت، كانت أثار الزمن تزحف عليه أسرع من الباقين منهم.. شعرت نحوه بتعاطف أكثر منهم.. نظره عينه السليمة التي توحى بعفه النفس وإنكسارها تمنعنى حتى من محاولة شراء أى شئ منه كمساعده، لا أدرى حقاً السبب الذى شعرت من أجله بأن هذا الرجل كان غنياً في أحد الأيام! كان مجرد إحساس داخلى، كانت هذه الفكرة تحتلنى تماماً وتشكل عائقاً يمنعنى من محاولة المساعده بأى شكل، كنت أشعر بأنى وإن فعلت فسأحطم بقايا كبرياء تتوارى داخله.

أخرجت أحد سجائرى من جيب معطفى الرمادى الثقيل، نفثت دخانها على صفحة النيل وأنا أتذكر تحذيرات الطبيب العديده التي ملأ بها أذنى يحثنى على عدم التدخين. فليذهب الطبيب للجحيم وهو ونصائحه.. توارت الأجساد تحت التراب واختفت أشباح الماضى، تساقطوا من حولى ولم يبقى سواى.. برد يناير ينخر في عظامى نخراً فأضم ياقة معطفى طلباً للدفء.

أتامل ضفتى النيل وأقارن بينهما.. نهر واحد يفصل بين منطقتين يختلفان فيما بينهما أشد الإختلاف، فعلى اليمين الزمالك بأبراجها الشاهقة ومبانيها المتراصة في إنتظام، شوارعها نظيفة تكاد تخلوا من الماره.. وعلى الشمال تقع منطقة الكيت كات وقد كسا التراب شوارعها وتكاد لا تخلو من الماره، تمتلأ الشوارع بالباعة الجائلين والمبانى العشوائية.. ترى هل هذا الإختلاف الرهيب بينهم أوجده سكان الزمالك أم الكيت كات!

تكسر الأسمنت في بعض أجزاء الكوبرى وظهرت في باطنه الأعمده الخرسانية والحديد، يكاد الكوبرى يلفظ ما بأحشائه وكأنه ينعى أحبابه. في إنتظام بعض أجزائه وتهدم البعض الأخر وصلة ما تحفظ الإتزان بين طرفى ضفه النيل فكأنما هو أرض مشتركة تجمع بين النقيضين في تلك الدقائق التي يستغرقها أحدهم في العبور من أحد ضفتى

النهر للأخرى.. هل كان بائعوا الكوبرى هؤلاء أشباحاً حقاً أم أن الشبح الوحيد هو أنا!

كان ثالثهم في أواخر الثلاثينات من عمره.. يجلس على صندوق خشبى صغير الحجم بالمر الذى يفصل درجات السلم لقسمين. يريح ظهره إلى الوراء مستنداً على الحائط المزين بالرسوم الجرافيتيه متعددة الألوان.

رأيته يتأمل تلك الرسوم مره أو أثنان قبل أن يهز رأسه في يأس من أن يفهم ما تعنيه يوماً ثم يعاود الجلوس في نفس الوضعيه مره أخرى، يتابع عبر عدسات نظارته الغليظة أحذية عابرى الكوبرى في أمل أن يطلب منه أحدهم أن يلمعها، عندها كان يفتح صندوق العده الخشبى أمامه مخرجاً أدواته ويقبل على تلميع الحذاء بكل حماس وإخلاص. وكان دائماً ما يدق على الصندوق بقطعة خشبية صغيرة يحملها في يده اليمنى ثلاث دقات بعد الإنتهاء ناظراً لوجوه الماره من حوله في رضا. أحيانا كانت تطول عليه أوقات الأنتظار وتمتد لما يبدو له إلى ما لا نهايه، عندها كان يدير مؤشر الراديو الصغير الذى يضعه بجواره باحثاً عبر موجات الأثير عن أغنية قديمة تطفأ عطش ذكرياته، ثم يغمض عينيه في إستمتاع مكتفياً بمتابعة الأغنية بأذنيه.

كانوا أربعة وكانت هى خامستهم أما هو فقد كان الوافد الجديد..

السادس والمتمم وأخر أعضاء الحلم القديم.

لم تكن تختلف عن أى فتاه أخرى في عمرها.. يكلل الحجاب رأسـها ويطل منه وجهها العشرينى الغض، قمحاوية البشرة، متوسطة الطول، لا هى بالنحيفة ولا هى ممتلئة الجسد.. فقط تبدو مثل أى فتاة أخرى في عمرها لا تتميز بشئ خاص، إلا بأبتسامتها.. كانت إذا إبتسمت أضاء وجهها في فرح طفولى غريب لا يتناسب مع سنوات عمرها.. تجلس على مقعد يشبه مقاعد صائدى السمك المتناثرين على إمتداد الكوبرى عن يسارها، وعندما تبدأ ظلال الليل في التساقط على العالم تطوى مقعدها وتلملم بضاعتها وترحل إلى حلمها الخاص.. لم يكن لمثلها إلا أن تبيع العطور والبخور جذابة الرائحة.. أكاد أشتم تلك الرائحة الأن، رائحة كل عطور العالم مجتمعه تصدر عن علامات منضدتها الخشبية على أرض الكوبرى.

عادت بى ذاكرتى المشوشه في رحلتها عبر الأماكن والأزمنه إلى رابعتهم.. متشحة بالسواد من شعرها لأخمص قدميها، تجلس مكان أبنتها على الكوبرى طيلة نهارها في صمت، تمد بصرها للأمام في شرود وهى تكاد لا ترى الماره، منسحبه لعالمها الخاص الذى ظهرت بعض ملامحه على وجهها الحزين.. أستدعى تغضن جلدها العجوز وبشرتها التي لوحتها الشمس من أعماق ذاكرتى فلا أراها.. أعرف يقيناً أن

بشرتها كانت سمراء لوحتها الشمس، وأن جلدها كان عجوزا متغضناً، ومع ذلك لا أتذكر أيا من ملامحها. عصرت ذاكرتى فجاوبتنى بالخواء، فقط عاد وجه إبنتها يطل عليّ من جديد، إبنتها الوحيده والخامسة في طابور البؤس والشقاء.. ملت إبنتها من طابورهم الميت الحى وتمردت على جفاف الواقع، خرجت خطوة عن صفهم الحزين محنى الظهر متساقط الأكتاف وصرخت في الفراغ أن لا..

مرضت الأم وأنقطعت عن الجلوس خلف بضاعتها على الكوبرى بضعه أيام، خلفتها أبنتها وجائت لتعاود مسيرة أمها وتصل ذكرياتها هى الأخرى بالمكان.. عادت الأم بعد بضعه أيام ولكنها لم تعد كما كانت، هرمت كثيراً في رقدتها ولم تعد تستطيع الجلوس في مكانها القديم كما إعتادت. كانت تجلس مع ابنتها بضع ساعات قبل أن تعود لمنزلهما مره أخرى.. كنت أراهما وقد جلست كل منهم بجوار الأخرى و قد إلتصقت أكتافهما يتأملان صفحة النهر في صمت وسكون.. يتبادلان أقل القليل من العبارات المقتضبة.. كانتا كحلقتى وصل بين الماضى والحاضر وقد ترابطتا مكونتان حلقه واحدة لا تنفصل.

بعد فترة من الوقت أختفتا كلتاهما وغابت عن الكوبرى رائحة العطور.. تذرع الكوبرى بالصمت ولم ينقل إلىّ أخبارهما.. ثم عادت في أحد الأيام، تغيراً ما طرأ على ملامح وجهها وتوشحت بالسواد فكأنها

نسخة أخرى من أمها أصغر سناً.. غابت إبتسامتها وظلت ملامح وجهها على شكل واحد لا يتغير، نظرة الشرود هذه لم ألحظها عليها من قبل.. ولما تلاحقت الأيام يجر بعضها بعضاً ولم أر أمها فهمت.. عرفت السر وراء نظرتها الخاوية والملابس السوداء التي ما عادت تفارقها.. إعتدت أن أمر بجوارها في صمت ورأسي منكسة في تعاطف لا أدرى إن كانت قد لاحظته أم لا. تمنيت لو كان بوسعي المساعدة ولكني كنت أعرف آلام القلب هذه، إختبرتها مع وفاه والدى فكنت أعرف يقيناً أن أحاديث الناس مهما إمتلئت بالتعاطف والتفهم إلا أنها لا تساعد ولا تطفأ نار الفراق.

تغيرت عاداتها مع الوقت وأكتسبت عادة جديدة.. أصبحت تحمل معها كتباً وتجلس لتطالعها بإنهماك طوال اليوم لا يقطعها إلا وقوف أحد عابرى الكوبرى لشراء شيئاً ما من بضاعتها. لمحت عنوان أحدهم ذات يوم فعلمت إنها قد إلتحقت بالجامعة.. شعرت بالفخر يومها وكأنها أبنتي، لقد نهضت من وسط الرماد كعنقاء خرافية وبدأت تجرب في حذر أن تفرد أجنحتها لترفرف نحو المجهول..

بدأت تتغيب عن الحضور في بعض الأيام، كان أخي لا يزال طالباً بالجامعة ولهذا كنت أعرف أن تلك هى أيام الإمتحانات.. ظلت فرشتها كما هى وتراصت عليها بضاعتها وإن أختفت هى، كان الباقون يتبادلون

الأدوار فيما بينهم للجلوس مكانها، يبيعون من بضاعتها ما إستطاعوا ويجمعون النقود في كيس صغير من البلاسيك تمهيداً لتسليمه لصاحبته.. أرى الحماس في نظرات أعينهم وهم يتابعون عملها مكانها، كان كل منهم يشعر بشكل ما أنه مسئول عنها بطريقة أو بأخرى. كانت هى الحلم المشترك الذى جمع بينهم جميعاً يوماً ما.. الأمل في مستقبل أفضل من واقعهم الحالى، كانت صغيرة وكانوا عجائز ليس بمستقبلهم نفعاً يرجى مثلها.

عادت بعد إنتهاء فترة الإمتحانات وقد إستعادت بعضاً من ذاتها. كان هو هناك وكأنما ينتظر.. جاء الوافد الجديد، السادس والمتمم وأخر أعضاء الحلم القديم.. كان يماثلها عمراً تقريباً. شاب في مقتبل حياته لا يدرى أحد عنه شيئاً، إبتسامته صافية ولا يكدر صفوه مكدر، دائماً ما يضع على رأسه تلك الطاقية التي يرتديها بالمعكوس.. تلتمع حبيبات العرق على وجهه الأسمر من حرارة شمس الصيف فيمسح عنه العرق بمنديله القماشي الأبيض.. يفترش المر الواصل بين درجتي السلم وقد رصت بضاعته على قطعة قماش كبيرة الحجم وقد وضع عليها ألعاب أطفال بلاستيكية عديدة متنوعة الألوان.. يحتمي بالشمس فيجلس بجوار بائع الأحذية مريحاً ظهره على الحائط الأسمنتى، يستمع كلاهما للراديو الصغير ويتجاذبا أطراف الحديث فيما بينهم.

كانت هناك، وكان هناك هو الأخر، أما ماء النيل فكان شاهداً عليهما.. رأيتهما يجلسان معاً عده مرات، تارة أراها وقد أفترشت الأرض جوار بضاعته يتحدثان، وتارة أخرى أراه وقد صعد درجات السلم القليلة ليقف جوارها يستندان على حافة الكوبرى المعدنية ويتطلعان للأفق المتد على مرمى البصر.

عرض على أحد الأصدقاء وقتها وظيفة بالشركة التي يعمل بها بمرتب أفضل، لم أتردد كثيراً وغادرت شركة الزمالك فلم أتابع أخبارهما.. وبعد مرور ما يقرب من سنة على مغادرتى للشركة القديمة أضطرتنى ظروف العمل للتواجد بالزمالك في أحد الأيام.. عدت وأنا أبحث عن أعضاء الحلم القديم بنظرى.. كانوا جميعاً في أماكنهم، لم يتغير في حياتهم شيئاً يذكر سوى الأثر الذى طبعه الزمن على وجوههم.. توفى ثانيهم الذى إعتاد أن يفترش درجات السلم السفلى، تأثرت لغياب الرجل ولكن سرعان ما فكرت أن في موته رحمه له ولسنوات عمره التي جاوزت الستون عاماً.. وعندما صعدت درجات السلم إلى الكوبرى رأيتها.. تكورت بطنها لتحتضن أحشائها مولودها الأول.. كان هناك يجلس جوارها وقد أنضمت الفرشتان لتصبحا فرشه واحدة جمعت بضائعهما معاً، وفى عينيها رأيت نظرة الرضى والسكينة، وفى نظرتها له رأيت نظرة الحب المقدس.

بطاقة شخصية

تهادت العربة الكارو في سيرها أسفل الكوبرى وقد بدا واضحاً على قائدها التعب والإرهاق، بينما سار الحمار يجر خلفه العربة ببطء على الرغم من أنه لم يكن على متنها سوى مالكها العجوز وبعض الأقفاص الخالية. لم يكن هناك الكثير من الماره في الشارع العريض بطبيعه الحال نظراً للبرد القارص الذى حملته رياح يناير معها في عصفها الذى لم يكد ينقطع لدقائق إلا ليعود مره أخرى أشد مما قبل.

إستكان قائد العربة العجوز على ظهرها وارتخى كتفاه على جانبى جسده الأسمر الضئيل، كان من الواضح أن الحمار يحفظ طريقه جيداً فلم يحاول الرجل العجوز أن يوجهه وأكتفى بمتابعة الطريق بعينان إستحال لونها مع مرور الزمن للون الرمادى أقرب. ضم العجوز يداه معاً وقربهما من فمه لينفخ فيهما بعضاً من الهواء الدافىء عله يستجلب قليلاً من الدفء.

ابتسم العجوز في رضا وهو يتأمل سطح العربـه الخـالى مـن الفاكهـة. حمد الله في سره فقد إستطاع اليوم ان يبيع كل بـضاعته، مـد يـده لجيـب جلبابه مخرجاً حصيلة اليوم من النقـود وبـدأ في عـدها، إمـتعض عنـدما تذكر المبلغ الكبير الذى اعطاه لموظف البلدية الجشع في مقابـل ان يتركـه يبيع بضاعته في سلام، دفع النقود صاغراً وهو يشعر بالقهر ينهشه، كان عزائه الوحيد هـو أن الجميـع يـدفعون، تمتـد الايـادى بـالنقود وتمـتلأ الارواح بالحقد والكره. هى بضع دقائق تحل على الجميع كل يوم بـصفه دائمه مهما حدث، يمر عليهم هذا الموظف بملامح وجهه التي يتعجـب لها دائماً، فهى تـتغير باسـتمرار أمـام عينـاه اللتـان فعـل بهمـا الـزمن افاعيله فلم يعد يثـق بهمـا، كـان يتخايـل لعينيـه ان ملامـح وجـه هـذا الموظف تتغير مع مرور الوقت لتصبح لملامح الخنازير اقرب.

حاصره البرد فبدأ يفكر في سريره الدافئ، لابد وأن أبنائـه وزوجتـه ينتظرون عودته بفارغ الـصبر، لم يكـن بالبيـت اى طعـام عنـدما غـادره بالصباح الباكر سعياً وراء رزقه ورزق أبنائه، سـيعرج في طريـق عودتـه على بائع الخضر صديقه الذى يفتح محله طوال الاربـع وعـشرون سـاعه يتناوب هو وأبنائه على الوقوف فيه، ولما كـان الله كريمـاً معـه في رزقـه اليوم فسيعوض ابنائه عن جوع اليوم بنصف كيلو من اللحـم. بـدأ يـشعر بطعم اللحم على شفتيه فازدادت رغبته في العوده لبيته.

رأى اشباحهم الواقفه أسفل الكوبرى وقد تخفوا في ظلمات الليل، ورغماً عنه إجتاحت جسده رعشه خوف غير مبرر، إستعاذ بالله في سره وأخد يتمتم بالأدعيه. كانوا قد نصبوا الكمين أسفل الكوبرى بطريقه تجعلهم مخفيين عن العيون فلا يراهم الماره إلا بعد أن يقتربوا منهم للغايه. توقفت سيارتان تابعتان لجهاز الشرطة واحده على اليمين والأخرى على اليسار، وبالقرب من احد السيارات كرسيان يجلس على كل منهم ضابط شرطه وقد تدثر كلاهما بمعاطفهم الميرى الثقيله، كان احدهما يمد قدميه على كرسى اخر وقد احتضن بيديه كوبًا من الشاى يتصاعد منه البخار الدافى، وبجوار السيارة الأخرى وقف أمينا شرطه وعسكرى، كان كل منهم يحمل سلاحه الميرى.

أوقفه احد الامناء وطلب منه بطاقته الشخصية، اخرجها له بأصابع ترتعش من الخوف ومن البرد. كان يخشى كل ما هو تابع للحكومه وعلى الأخص الشرطة، كان يعتقد دائماً بانهم سيلقوا القبض عليه على الرغم من كونه لم يخالف القانون طيله حياته، لم يكن مجرماً يوماً او بلطجياً، ولدته امه في الظل وتربى ونشأ فيه فلم يخرج عنه ولو لمره واحده. كان يسمع الإشاعات مثل غيره من الناس عن الأبرياء الذين تعفنوا وراء قضبان السجون في قضايا ملفقه، لم يعرف أحدهم ولم يكن يعلم مدى صحة تلك الإشاعات ولكن الخوف من الشرطة وجد طريقه

لقلبه على الرغم من ذلك.

أمسك امين الشرطة ببطاقته الشخصيه يطالعها للحظات قبل أن يتوجه لأحد الضباط ويعطيه إياها. تبادل الضابط بضع كلمات مع امين الشرطة قبل أن يشير له الضابط بالإقتراب. على الرغم من البروده الشديده إلا ان العرق غمره وهو يتوجه ناحيه الضابط الشاب بخطوات متردده، مرتعبه كخطوات من يتوجه لحبل المشنقة. وقف مطأطأ الرأس أمام الضابط الذى قال له:

- بطاقتك دى؟

رد عليه بصوته المشروخ قائلاً:

- أيوه يا باشا.

- بطاقتك دى منتهيه ليه؟

- معلش يا باشا نسيت أجددها.

- يعنى أيه نسيت تجددها؟ دلوقت البطاقة دى منتهيه، يعنى أنت معكش تحقيق شخصيه.

صمت في خوف للحظات قبل أن يقول:

- معلش يا باشا، أنا راجل كبير زى ما أنت شايف وذاكرتى على قدى فنسيت أجددها.

– مليش دعوه بالكلام ده، دلوقت أنت بنى أدم ماشى في الـشارع مـن غير بطاقة يعنى حقى انى أخدك معايا القسم لغايه ما أعـرف أنـت مـين بالظبط.

– ما البطاقة في أيد سعادتك أهى يا باشا.

– وأنا اعرف منين انها بطاقتك؟

– ما انا صورتى عليها سعادتك.

– بس أنت أكبر من الشخص اللى في الصورة اللى قدامى؟

– عشان الصورة دى اتاخدتلى من كذا سنه سعادتك.

– أهو شفت، أعرف منين بقى ان دى بطاقتك؟

ثم أكمل وقد علت وجهه إبتسامة غامضة:

– ثم الصورة دى مش عاجبانى اصلاً.

صمت العجوز وقد حار في الرد على الضابط الذى تابع قائلاً:

– فين رخص الكارو اللى معاك دى؟

إكتست ملامح العجوز بالجزع قبل أن يتسائل:

– رخص ايه يا باشا؟ هى الكارو بيطلع لها رخص؟

– أمال تمشى بيها كده من غير رخص؟

– هى الحكومة بتطلع رخص للكارو يا باشا؟

- مليش دعوه انا بالكلام ده، انا عايز رخص يبقى تجيبلى رخص.

تحول خوف العجوز إلى إنتفاضات تغزو جسده وأوشك على البكـاء. لم يدرى ماذا يفعل أو إلى من يلجأ سوى الله فأخذ يدعوه في سره أن ينجيه من محنته. لمح الضابط إرتجاف جسد العجوز فطلب منه أن يتنظر قلـيلاً ريثما يبت في أمره. توجه العجوز ليقف بالقرب من أحد أمنـاء الـشرطة وقد أيقن أنهم سيصادروا منه عربته التي يسترزق منهـا. مـال علـى أذن الامين قائلاً:

- ما تعرفش يا ابني هو هيعمل معايا إيه؟

قال له الامين في نبره مشفقة:

- أنت ايه بس اللى عداك من هنا يا حج!

- نصيبى يا أبنى.

- والله يا حج أنت وحظك بقـا، بـس غالبـاً هيكـدرك جنبـه شـويه وبعدين هيمشيك. هو وزميله مش لاقيين حاجـه يعملوهـا فجيـت أنـت تسليهم.

إطمئن قلب العجوز قليلاً لكلمات العـسكرى وإن لم يغـادره الخـوف على مصيره المجهول. جلس على الرصيف منتظراً قرار الضابط. دعـا الله أن يكتفوا بالتسليه عليه فقط، لم يكن يفكر سوى بالعربه الكارو فعليهـا يعتمد رزقه ورزق أبنائه. تـذكر أبنائـه فـشعر بـالجزع علـيهم وعاطفـة

الأبوه تمزق أحشائه، كان يعـرف أنهـم جـوعى بانتظـاره ليحـضر لهـم الطعام بعد أن إقتاتوا على الكفاف اليومين السابقين لمرض العجـوز الـذى منعه من العمل.

أشار له الضابط بـالإقتراب مـره أخـرى، توجـه ليقـف أمامـه نفـس وقفته السابقه وقد لمح زميله يتأمله وقد حمل وجهه تعبيراً جامد، فارغ لم يفهم منه شيئاً. تأمله الضابط لثوان قبل أن يسأله قائلاً:

– جبت الرخص ولا لسه؟

– رخص أيه يا باشا؟

– رخص الكارو يا روح أمك.

لم يشعر حتى بالإهانه فقد إعتادها طيله حياته. أجاب قائلاً:

– طب أجيبها منين حضرتك؟

– وأنا مالى أنا تجيبها منين؟ بص من الأخر كده لو عايز تعدى يبقى تورينى رخص الكارو وبطاقة الحمار.

رد مسرعاً في جزع:

– هو الحمار بيطلع له بطاقة يا باشا.

ضحك الضابط قبل أن يقول:

– أشمعنى أنت معاك بطاقة.

توقـف الـضابط عـن الـضحك وأشـار اليـه بالإبتعـاد، عـاد للرصيف ليجلس نفس جلسته السابقة. أراح ظهره ورأسه للوراء ليستند على أحد أعمدة الإضاءة وقد بلغ منه الإرهاق والتعب مبلغه، ودون أن يشعر تسلل إليه النوم.

* * * * *

التاريخ: الخامس والعشرون من يناير عام **2011**.

<u>الساعة: الثانية ظهراً.</u>

استيقظ العجوز على صوت الضابط وهو يوجه أوامره للعسكرى وأمناء الشرطة بصوت مرتفع. لثـوان لم يتـذكر العجـوز أيـن هـو وتـسائل عمـا يحدث حوله، وسرعان ما عادت تفاصيل الليله السابقة تغزو وعيه بقوة. تحرك من حوله في سرعة وهرج. ألقى العجوز نظره على عربته وحماره وأطمئن قلبه عندما وجدهما لا يزالا بجواره. نسيه الضباط ليله البارحـة ولم يلاحظوا نومه. توجه لأمين الشرطة الذى تبادل معه الحـديث ليلـه البارحه قائلاً:

– هو في إيه يا أبنى؟

– جاتنـا أوامـر نـسيب المكـان ده ونطلـع علـى ميـدان التحريـر. في تجمعات ومظاهرات هناك.

– طب وهيعملوا معايا إيه؟

- والله ما أعرف يا حج.

توجه العجوز للضابط الذى أخذ منه بطاقتة في خطوات مترددة، سمع الضابط يقول لزميله في غضب:

- ولاد الكلب، هما فاكرين البلد سايبه ولا إيه؟

شعر بالخوف لغضب الضابط وتوقف عن السير للحظات ليستجمع شتات أفكاره، لمحه الضابط فأشار له بالإقتراب زاعقاً فيه:

- تعالى يا حيوان.

أسرع العجوز في الخطى وتوقف أمامه، نظر له الضابط بكراهية لم يستطيع تفسيرها وهو يقول:

- أنت لسه هنا بتعمل إيه؟

- ما بطاقتى معاك سعادتك.

أخرج الضابط بطاقه العجوز من جيب قميصه وألقاها على الأرض قائلاً:

- خدها وغور في داهيه.

مال العجوز بسرعه ليلتقط بطاقته وقفل عائداً لعربته. وبعد أن إعتلى ظهر العربه تابع بعينيه ما يحدث وقد علت وجهه إبتسامة. داخله يقين أن الله قد أرسل هؤلاء الشباب ليكتب له بهم نجاته. ومن أعماق صدره تصاعد دعاءه لهم بالتوفيق.

الفهرس

إهداء 5
انكسار 7
أوراق وأشياء أخرى 17
منديل وحجر وثورة 28
حنين 45
الطريق 51
زينب 57
عنتر الأسود 77
ملامح 89
الشاهد 99
أشباح الكوبري 106
بطاقة شخصية 117



رأى اشباحهم الواقفه أسفل الكوبرى وقد
تخفوا في ظلمات الليل، ورغماً عنه إجتاحت
جسده رعشه خوف غير مبرر..
إستعاذ بالله في سره وأخد يتمتم
بالأدعيه.
لم يكن مجرماً يوماً او بلطجياً.. ولدته امه
في الظل وتربى ونشأ فيه فلم يخرج عنه ولو
لمره واحده.
وكان يسمع الإشاعات مثل غيره من
الناس ..

